القسم السابع

obeikan.com

obeikan.com

لماذا نعيش في عالم سيئ ؟

لماذا نعيش في عالم سيء؟...
هل نحن نعيش في عالم سيء؟...
ماذا يعني (عالم سيء)؟...
ما هو مفهوم السوء أو الرداءة؟...
ما هو العالم وما هي حدوده؟...

قد لا تخطر هذه الأسئلة بصيغتها المباشرة على الذهن، ولكن كل فرد يعيشها كُلاً أو جزءًا، في لحظة من لحظات يومه أو أسبوعه أو شهره.

قد يختلف البعض في تحديد مفهوم العالم حسب المدارس الفكرية والعقائدية أو حسب المقاييس الجغرافية والاتصالية ولكن ذلك لن ينفي حقيقة وجود الرداءة. وسوف تخضع هذه الأخيرة لنفس معايير الخلاف السالفة في تأويل وتحديد العالم وتبقى النتيجة واحدة: أن العالم رديء.

إذن لماذا علينا أن نعيش في عالم رديء ؟!...

•

التطور هو التمايز الرئيس بين توصيف الكائن البشري والكائن غير البشري. وهذا يتيح له أمرين : أحدهما التغير المستمر في أنماط الحياة والمعيشة والفكر. وثانيهما التحسين المستمر في أنماط الحياة والمعيشة والفكر.

بينما تدرج الكائنات غير البشرية على سُنَّة ثابتة ونمط واحد لا تغير فيه، وهو ما ينطبق على الكائنات البدائية التي تولد وتقتات وتموت بنفس الطريقة (الفطرة) ، أو الإجرام والكائنات فوق الأرضية الدارجة في مدارات ولوالب مرسومة.

وقد بدأت حياة الإنسان على الأرض من الصفر. من الطبيعة والغابة والكهوف والصيد إلى الرعي والزراعة والسكن والاستقرار وصناعة الاحتياجات اليدوية للمعيشة. وكان للعقل والفكر والحاجة والضمير دور كبير في تحقيق مسيرة التطور الممثلة في نشأة المدنيات الأولى وظهور الأفكار والعلوم والأديان والفلسفات. ويحدِّد المؤرخون ثلاثة فوارز رئيسة في درج التطور البشري ، الفلسفة الإغريقية ، منجزات عصر النهضة في أوربا ، والمكتشفات العلمية في القرن العشرين.

إن مفهوم التطور بهذا الاتجاه ليس سوى خلاصة عمليات متداخلة ومعقدة ، تشارك فيها قوى متفاوتة من الشدّ والجذب والتنافر والتشابه ، وليس من الصحيح النظر إليها كحالة منسجمة متناسقة ذات مدرج طبيعي تنتهي إلى نتائج بديهية.

لقد قوبل كثير من محاولات التطور والتغيير بوحشية وضراوة واستغرق فترات تاريخية طويلة حتى يتحول إلى حقيقة حياتية.

من المؤسف... أنه لحدّ الآن ، تقترن كثيرٌ من محاولات التغير والتطور وتغيير مراسم وأنماط الحياة بالعنف والدم والوحشية ، ما يقدم شهادة على الجذور الأصلية المكتنفة للكائن البشري التي لا يستطيع أو لا يريد الفكاك منها.

والحقيقة ، رغم يأس الفلاسفة والأخلاقيين من ذلك ؛ فأنه ، ما لم يصل الإنسان إلى درجة من التمدن والتحضر والارتقاء يتحرر فيها من خصائص الحياة البدائية والهمجية والانفعال ، لا يمكن النظر للتطور كقيمة حقيقية حققت نقلة إنسانية في الحياة على الأرض.

ومن الطريف ، أنه بينما تجري محاولات حثيثة ، قطعت أشواطًا بعيدة ، لتعليم بعض الحيوانات أنماط متحضرة للحياة أو (الأنسنة) ، بعبارة أدق ، ومحاولات أخرى لتصنيع (إنسان آلي) يحمل مواصفات مثالية ، فإن مساحات كبيرة من

الكرة الأرضية – ما زالت – تشهد صراعات همجية لا طائل من ورائها غير تفريغ نزعة العنف والشرّ الطاغية عليها، بينما تتدهور مستويات الحياة وتتقدم معدلات الجريمة والعدوان لتنقضّ على المدنيات العصرية وتعيدها للقرون البدائية والهمجية في بِقاع أخرى.

•

يتحمل القرن العشرون وزر التردي الحضاري والإنساني الذي نعيشه اليوم في نقطة تحول الألفية. فكما كان ذروة في المنجزات العلمية والنقلة الحضارية والمدنية في كثير من أصقاع الأرض ، كان في نظر تيار من الفلاسفة والمفكرين الغربيين علامة على التردي الأخلاقي والانحطاط (الإنساني) وزخمًا مضاعفًا لدفع نزعة التشاؤم أو السوداوية.

إن الحياة المعاصرة على الأرض مدينة إلى أمرين رئيسين: الثورة الصناعية في القرن السابع عشر وما بعدها ، وحركة القرصنة البحرية والاستعمار الحديث... وهما الأمران اللذان يستند إليهما التيار الأخلاقي أو الإنساني في إدانة الانحراف البشري.

فالثورة الصناعية وما ترتب عنها وأسفرت عنه زادت من الشقة بين الإنسان والمادة، والأخلاق والحاجة، وذلك بانحيازها لقيم المادة والربح والتراكم على حساب المعايير الأخرى. وبشكل جعل من الكائن البشري مجرد (وسيلة) رخيصة لخدمة الآلة الرأسمالية الإمبريالية.

ويقدِّم التاريخ المعاصر ظواهر مقيتة ومزرية في الاستهانة بالحياة والإنسان عبر ازدهار القنانة في آسيا وتجارة الرقيق في أميركا وأوربا التي لم تضع أي اعتبار لكيان الإنسان وكرامته. فكان بعض الرقيق يلقون بأنفسهم في مياه البحار والمحيطات للنجاة من المصير الأسود الذي ينتظرهم ، بينما تشير الإحصاءات إلى أن حوالي ثلث العدد كانوا يلقون حتفهم مع بداية وصولهم

تحت ظروف الحياة والعمل القاسية. وكما تؤكد مواثيق حقوق الإنسان فإن صدور قرار حظر تجارة الرقيق (١٨٠٧) لم يمنع استمرار ظاهرة الرقيق على صعيد الاستخدام الخاص، ولم يمنع استمرار مظاهر أخرى للرقيق والعبودية في عديد المجتمعات التي بقيت بعيدة عن يد القانون والملاحقة. كما لم يمنع ذلك من الالتفاف على مضمون القرار والمصطلح لازدهار صيغ ومصطلحات جديدة قائمة على نفس مضامين تجارة الرقيق والعبودية المنبوذة.

الركيزة الثانية هي حركة الاستعمار الحديث، والتي تمثلت بقيام دول معينة بإنشاء مراكز نفوذ تجارية أو سياسية أو عسكرية أو دينية خارج حدودها الإقليمية والسياسية، وفي بلاد غير موصولة بها جغرافيًا. فامتلكت بلجيكا وهولندا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة على مدى فترات تاريخية متعاقبة مستعمرات ومناطق نفوذ لها في كل من آسيا وأفريقيا وأميركا الجنوبية. وبشكل قسَّم خريطة العالم إلى قسمين، عالم السيادة وعالم التبعية، عالم الحضارة وعالم التخلف، عالم متقدم وعالم رجعي. وكان لهذا التقسيم إفرازات فكرية وثقافية وسياسية لا زالت سائدة حتى اليوم ومضمنة في ثنيات الأعراف والمواثيق الدولية التي لم يكتبها غير الذاكرة الأوربية الغربية السائدة.

على صعيد آخر، تمثل الكثير من الكيانات السياسية (الدول) القائمة اليوم إفرازات مباشرة لحالة الاستعمار التي تعرضت لها تلك البلدان، وبالتالي البقاء في حلقة التبعية والدوران حول القوة المستعمِرة ثقافيًا وسياسيا.

•

مرَّت حركة الاستعمار باستحالات عديدة منذ القرن السابع عشر حتى اليوم، تمثلت بصراعات القوى الإمبراطورية على تقسيم مناطق النفوذ والسيادة في العالم منذ الحروب الأوربية الداخلية التي لم تحسم إلا في الحرب العالمية

الأولى [١٩١٤- ١٩١٨م] التي رسخت الانتقال من الاستعمار القديم [الإمبراطوريات السبع (هولندا / بلجيكا / إسبانيا / البرتغال / روسيا القيصرية / النمسا والمجر"الهابسبورغ" / العثمانيين)] ، لصالح قوتين إمبراطوريتين وحيدتين [بريطانيا- فرنسا].

ولم يتوقف الصراع بين القوى المتنفذة كما فشلت المعاهدات والمواثيق في خلق الطمأنينة بين الجانبين ، وسيما مع سرعة استعادة ألمانيا لقوتها والتحول لقوة أوربية ثالثة تنافس النفوذ الأنجلو فرنسي. مما قاد إلى تصفية دموية جديدة لعقدة النفوذ الأوربية في الأعوام [١٩٣٩- ١٩٤٥م] أسفرت عن خروج أوربا من مجال النفوذ ، لصالح ظهور ميزان قوى عالمي جديد قائم على القوة الاقتصادية والذرية ممثلاً في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة والذي انقسم العالم بموجبه إلى ثلاثة خنادق اقتصادية سياسية [رأسمالي- اشتراكي- مختلط].

إن عمليات التحول الميدانية على الأرض جراء سقوط قوى نفوذ وظهور أخرى لم تكن بالبساطة النظرية أو التفهم السياسي أو اعتراف المهزوم بهزيمته وإنما استغرقت من الدماء والوقت ما يدعم رصيد الخسائر في حسابات العالم المتخلف والتابع.

كما يلعب المستوى الحضاري للطرف المنتصر ونزعته الوحشية في الانتقام والاستئثار والتظاهر والغرور دورًا ملموسًا على الأرض في النكاية والزراية بالمستضعفين.

والحال التي تعيشها مجتمعات أوربا الشرقية وبعض بلدان آسيا والبلاد العربية عقب انهيار القطب السوفيتي وانفراد الإمبريالية الأميركية بالسيادة الدولية صورة لمضمون [الثقافة] الأميركية القائمة على الجريمة والاغتصاب والمسخ والعبودية.

•

ويمثل مصطلح (العولمة- Globalization) كقرين معادل لـــ(الأمركة- Americanization) ذروة المسيرة التكنولوجية والاستعمارية التي وصمت العصور الحديثة والمتضمنة لكل المخلفات والآفات التي حفلت بها المراحل السابقة. ناهيك عن مضاعفات عقدة (الخواء) الأميركي التي لا تنظر بعين الرضا للمجتمعات الراسخة والمدنيات القديمة.

ومن هذا المنظور يمكن تشخيص انتشار ظاهرة القلق الوجودي واهتزاز الثوابت البديهية والوجودية في جدول يوميات الفرد.

إن الاستعمار أو الغزو ، كثقافة وحضارة ، إنما يحمل الآخر خصائصه الذاتية وقيمه الفكرية والروحية التي تمثل أفضل ما لديه على الأغلب. وهي ظاهرة مقترنة بكثير من حركات الغزو والاستعمار عبر التاريخ.

وهو يكشف سبب اختلاف آثار غزو عن غزو آخر. ورغم الطابع العسكري والعنفي لكل حركة غزو وهيمنة ؛ فثمة أيضًا الجانب الآخر المتعلق بالمضمون الثقافي والحضاري.

حاول الإنجليز وضع قواعد الحكم المدني والقانون العصري في مستعمَراتهم ، وحاول الفرنسيون توريد ثقافتهم وقيمهم الفكرية إلى بعض بلدان أفريقيا. وفي عصر التبشير اعتقد كل من العرب والأوربيون على حِدة أن (الإسلام) أو (المسيحية) هي (الهدى) أو (النور) الذي ينبغي أن يفيء على الآخرين.

إن لقاء المختلف لا بدّ أن يستفزّ أفضل قدراتهما لمواجهة الآخر في حالة تنافسية مباشرة أو غير مباشرة ، سلمية أو عنفية ، وعلى مدى المحتوى الإيجابي والعملي لثقافة كل طرف تتحدد قيمته الحضارية والإنسانية.

وكما أن قيمة العلم تتحدد بـــ(تعلمه وتعليمه) ، فإن قيمة حضارة وثقافة تتحدد بمقدار ما تعكسه من آثار جيدة ومفيدة على الحياة اليومية والحاجات الأساسية للكائن البشري ، وحسب ما ورد في إنجيل لوقا (٣٥ :٧) : "والحكمة الصحيحة

تظهر في من يتبعونها"، أو القول المشهور "الإناء ينضح بما فيه".

الإنسان المعاصر، ليس إلا مرآة، تنعكس عليها كل آثار وملامح ثقافة المرحلة والبيئة التي يعيش فيها. وكما ينظر للإنسان الأوربي كممثل لحضارة مدنية تحترم الإنسان وحقوقه وتراعي احتياجاته وكرامته، فالفرد الوافد أو الممثل لثقافة عربية أو هندية أو أفريقية يعكس قيم وملامح حضارته وثقافته، وعليها يتوقف مستوى تقييمه وتصنيفه في جداول الأمم والثقافات.

بالمقابل، تترشح عوامل البيئة السيئة وثقافتها الرديئة على شخصية الفرد وبما يعطيه صورة (إسفنجة) تمتصّ غبار التأثيرات والسموم المحيطة بها، فتتلبّس بها شخصيته وسلوكه وانفعالاته وقيمه الثقافية والفكرية.

إن الفرد كوحدة اجتماعية، أو المجتمع، كوحدة بشرية تاريخية، قلما تنصرف للتفكير بهذه الانعكاسات والأقيام وآثارها البعيدة.

بعض العثريات الأركيولوجية في أدوات المعيشة أو القبور أو ألوان الشعر ووشم الجلد، يستنبط منها الباحثون معلومات عن أنماط معيشية أو تعبدية أو فنية لأهل تلك البلاد. ومنها يقاس مدى تطور الحياة والفكر مقارنة بالحقبة التاريخية.

ترى ماذا سيقول سُكَّان المستقبل عن أبناء اليوم. هل سيصدقون ما تسطّره الصحف والمجلدات من (نفخ وردح)، أم يدرسون ويحللون مظاهر الحياة وأنماط العلاقات وأصناف الجرائم وأعداد المقابر الفردية والجماعية ومعدلات الحياة المتوسطة وغير ذلك مما لا يعنّ لكثيرين.

•

يقول الأوربي المتقاعد اليوم (فوق الستين)، لقد عشنا الحياة الجميلة.

والحياة الجميلة لهذا الجيل الأوربي هي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية التي اتسمت بالسلام والتنمية والازدهار السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وهذه

بدأت بالتراجع مع التسعينيات وانفراد الهيمنة الأميركية وتكشف ملامحها المتوحشة شيئًا فشيئًا.

ليست هذه نظرة متحاملة على الثقافة الأميركية، أو تعبير عن موقف شخصي قدر ما تمثل صورة إجمالية شاملة للانتكاسة الإنسانية والحضارية التي يعيشها العالم، بل نعيشها نحن أبناء اليوم.

ومع وقوف بلدان أوربا الغربية على الحافة الحضارية وفقدان النفوذ والهوية، يعود بعض الفلاسفة للقول، ان مشروع الحداثة الأوربية لم يكتمل، وقد تضمن بعض الأخطاء البنيوية التي يقتضي إصلاحها ، والعودة لاستكمال مشروع الحداثة.

وفي ذلك تصريح ضمني برفض مشروع البوست مودرنزم الأميركي، الذي استهدف تدمير العالم، بما فيه المجتمعات الأوربية الغربية.

لقد تهيأ لأجيال معينة أن تنعم بحياة الهدوء والدعة والاستقرار.

ولكننا نحن أبناء اليوم. أبناء النصف الثاني من القرن العشرين الذي اتسم بالاستقرار والازدهار في العالم المتقدم، مقابل الانقلابات العسكرية والتغيرات السياسية والتذبذب الاقتصادي في بلاد العالم الثالث الأسيوية والأفريقية والجنوب – أميركية.

لقد اختزلت فترات التطاحن وعدم الاستقرار حياة الأجيال المحصورة ضمن هذه الفئات الزمنية ، وأنتجت ردود أفعال فردية وجماعية وتمثلت مظاهر سلوكية وثقافية واجتماعية ، لا يمكن تحليتها بقطرات من السكر ، أو تخفيفها بإضافة جرعات متزايدة من الماء ، أو تجميلها بإضافة الألوان الزاهية ، أو تكذيبها بالشعارات وتلفيقها بالخرافات.

لقد عانت المجتمعات العربية والأفريقية واللاتينية الأمرين في القرن العشرين، والأدهى في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وتساوت في حياتها ملامح عدم

الاستقرار السياسي والتخلف الاقتصادي. وبينما كانت أهداف التنمية وتحسين مستويات المعيشة والحياة مشروعة في العرف السياسي التقليدي، أصبح اليأس والتدهور علامة التبعية / الهيمنة الأميركية. وتعتبر ارتفاع معدلات الأُمية الهجائية والثقافية والنقص الفظيع في متطلبات التعليم والصحة وغيرها من البنى التحتية وارتفاع فئات الشباب ومعدلات البطالة والعنوسة، أبرز المخاطر الراهنة والمستقبلية، المنعكسة على هذه البلدان.

وبدلاً من اتخاذ إجراءات حيوية للقيام لتنمية حقيقية أساسية اقتصادية وصناعية في البلاد ، وفسح سقف الحريات والرأي الآخر ، ليستطيع الشباب تحقيق كياناتهم والتعبير عن قدراتهم، تلجأ بعض البلدان لفتح حدودها أمام الهجرة إلى الخارج والشمال ، وبالشروط الاقتصادية والسياسية المزرية ، وبالشكل الذي تستمر في اجترار حياتها السقيمة بينما تزيد في معاناة المهاجرين وذويهم ، كأسهل طريق للتخلص من أزمات مستعصية ، قد تنفجر آجلاً في وجه النُظم التقليدية التي لا تنظر أبعد من كيفية الاحتفاظ بالُحكم.

الرداءة، إن كانت لها أسباب تاريخية متوارثة، ومحفزات راهنة دولية، وقوى محلية مستفيدة ، تبقى في حلقتها الأخيرة ، جانبًا من مسؤولية الفرد ، في الانتصار عليها وتجنب استفحال أعراضها على شخصه وفكره وضميره، وهذا هو أحد امتحانات العولمة ، أنه بينما تنحني لها المؤسسات ، يبقى المواطن بمفرده في مواجهتها، لكيلا يخسر ذاته.

ولعلَّ أكثر ما يوجع في تبعات ضريبة رداءة الحياة والعالم هذه، انعكاسها على الأبناء والأحفاد والتلاميذ. وهذا يعني استمرار آثار المرحلة الراهنة إلى أبناء الغد. عندها يكون السؤال عن دور الفرد (دورنا) تجاه الرداءة أكثر إلحاحًا ومسؤولية.

•

لمعالجة ظاهرة معينة، يمكن تحديد ما لا نهاية من احتمالات الحلول والبدائل. ولكن، من بين هذه الما لا نهاية، دائمًا ثمة حل أو وسيلة واحدة هي الأنجع والأفضل.

أحاول تطبيق هذا المبدأ الرياضي الإحصائي في جانب البحث الاجتماعي ورصد أنماط الخيارات الفردية والجماعية في موقف محدد، وعلى مدى سحابة يوم كامل وأيام متتالية متوزعة في أسابيع وأشهر وسنوات، منتهية إلى سحابة عمر إنسان.

بدايةً... يفضَّل تصنيف السلوك الفردي في ثلاثة أنماط حسب القوى المؤثرة والموجهة فيها: نمط نابع من الوصايا والتعليمات العقائدية القومية أو الدينية / نمط خاضع لاتجاهات الأعراف والتقاليد الاجتماعية والبيئية / نمط محدود للجزئيات والخصوصيات التي ينحصر البتّ فيها للفرد ذاته.

الفرد، بحدِّ ذاته كائن مخلوق غير مستقل بذاته ووجوده، فبالإضافة لتسبّب شخص أو أشخاص في وجوده وحمله صورة من شرائطهما الجينية الوراثية المحددة لصفاته الموفولوجية وقدراته العقلية والروحية وخصائصه النفسية والحسية، فإن البيئة التي يُولد فيها، والتي يترعرع فيها تتدخل في صياغة جوانب أخرى من شخصيته الفكرية والاجتماعية. ما يكشف الدور الأكبر للعوامل الخارجية في صياغة الفرد. بعبارة أخرى: إن أهم القرارات الحاسمة في وجود الفرد خارج يده، فإذا أضيف إليها دور الأحداث والمتغيرات المحلية والإقليمية أو العالمية التي تصادف فترة حياته ونشأته، كالحروب والأوبئة والكوارث الطبيعية أو الصراعات الدينية والاجتماعية والاقتصادية، لا يبدو معها الفرد غير (دمية) أو روبوت ساهمت جُملة أو مؤسسة من العوامل المتضافرة في خلقه وتصنيعه وتوجيهه للعب دور معين. ومع وجاهة هذا

التحليل، فإن كثيرين، يرفضون هذا التوصيف، ويجتهدون في تبرئة العوامل الخارجية (! !) من مسؤولية بعض الممارسات، وتحميل (الفرد)، المسؤولية الكاملة أو شبه الكاملة عن المواقف الفردية. ومنه تحميل الجماعة أو الشعب مسؤولية الكوارث السياسية أو الاجتماعية المحيقة به، ووفق نظرية مسؤولية الضحية في قيادة المجرم لارتكاب الجريمة. لقد اختص اللاهوتيون وعلماء الدين في ترويج وجهات نظرهم (النمط الأول) ، والمفكرون والباحثون الاجتماعيون في تفسير ودراسة (النمط الثاني). فيبقى لهذه القراءة متابعة (النمط أو الشق الثالث) المتعلق بالسلوك الفردي أو دور الفرد في مواجهة الحياة والعالم.

•

هنا تبدو أهمية جُملة الاستهلال الرياضية في تنوع البدائل والخيارات في الموقف الواحد. إن كثيرًا من الأفراد يبرِّرون أفعالهم عندما تكون له نتائج غير محمودة، بأنه لم يكن لهم خيار آخر، وأنهم اضطروا إلى ذلك اضطرارًا. في مقابل أفعال أخرى تحظى بدعم ورواج، يتفاخر منفذوها بأنهم، لو لم يفعلوها هكذا لاكتشفوا مليون طريقة أخرى لتحقيق نفس الأهداف. فالقدرات العقلية والثقافية للفرد ، والإمكانيات المادية والبيئية ، تلعب دورًا طرديًا مع عدد الوسائل والطرق والبدائل والحلول للوصول إلى هدف محدد، أو الخروج من مأزق معين. وبالتالي، فإننا بشكل أو بآخر، نجد أنفسنا ثانيةً وثالثةً ورابعةً في أحضان العوامل الخارجية الموجهة لبناء الفرد وتحديد أو توسيع قدراته وآفاق حريته.

- دور الفرد في التكوين والتربية الذاتية

مهما بلغت ضراوة عوامل البيئة وسطوة التربية الخاصة، يبقى للفرد فرصة للاختلاء بنفسه، إن لم يكن في النهار ففي الليل، للتأمل والتفكر، في نفسه

وعائلته وفي المجتمع والطبيعة، فرصة لامتلاك أوقات فراغ وممارسة هوايات وفعاليات فردية يجد فيها نفسه ويحقق فيها كيانه الخاص. بعبارة أخرى، فرصة لاستخدام عقله وتوظيف قدراته بمحض إرادته، وعدم استمراء دور [الجنين] – (passive) التابع تبعية مطلقة أو شبه كلية للتلقين والوعظ والتقليد.

إن النفس الإنسانية مسكونة بالانطلاق والتمرد وعدم الاستكانة للقوالب والغُرف الضيقة. وهذا هو سِرُّ الإبداع والتطور والتجاوز والتمايز عن عالم السكونيات والمجترات على مدى التاريخ. في التشابه قتل للإحساس واختزال للعقل وقدرة المقارنة. بعبارة أخرى، إن وعي الزمن (اكتشافه/اختراعه)، لم يتحقق إلا بعد اكتشاف فكرة التغير وتعدد صور الحالة الواحدة. فتوالي الصور دلالة على وجود تقادم واختلاف عمر لحظة عن لحظة سابقة. وليس التاريخ سوى جدول زمني (Chronology) لوقوع الأحداث. ولكن عدد الأفراد الذين يدركون أو يتوصلون لاكتشاف قدراتهم الخاصة هو موضع السؤال. غالبًا ما تخطر على ألسنة الأطفال أسئلة أو جمل مدهشة أو خارقة للواقع أو العقل. طريقة التعامل معها، تتباين في خضوعها لعوامل البيئة والثقافة العامة، وتضع الموضوع إزاء إشكالية أخرى.

ومنه، اجتماع عوامل الطبيعة والمجتمع على خنق الطاقة الإنسانية وتحجيم ذات الفرد عبر سلسلة طويلة ومتنوعة من الأُطر والنواهي والمحرمات والمثبطات، واختلاق ذرائع وحجج لا تخلو من الوهم والخرافة لتبرير دعاواها وتمرير أساليبها التي تعود على زعمائها بمكاسب دنيوية غنية، بينما يستمر محاصرة الجنس البشري في جداول عقوبات ونصوص تسلطية قاهرة، ولا يفطن أولئك إلى أنه لولا الخروج على النمطية واختراق (المحرمات)، ما استمرت الحياة ولا تطورت أساليبها وبلغت العلوم والحضارة هذا الشأن. فالواقع التاريخي يؤكِّد أن الموانع والمعرقلات لم تستطع النيل من فطرة الإبداع والمغايرة داخل النفس الإنسانية.

مسؤولية الفرد هنا، امتلاك وقت لنفسه، لاكتشاف قدراته وبلورة رؤاه وأسئلته تجاه الآخر. وفي أيام المدرسة الخالية، كان تشجيع الهوايات الخاصة والأنشطة اللا صفية والتي أنتجت أجيالاً من العمالقة في مجالات الفنون والآداب والعلوم والرياضة ممن كان لهم دور مشرق في إضافة الاشعاع في تاريخنا المعاصر. بيد أن فكرة الهوايات والأنشطة غير المدرسية تراجعت سلبًا في السنوات الأخيرة، مع اجتياح الصناعات الاستهلاكية مجالات الطفولة والألعاب والتسلية التي اختزلت كثيرًا من حرية القدرات الذهنية والجسدية للطفل، وجعلت منه (روبوت) يتعامل مع لعبة إلكترونية وفق قائمة الارشادات (Instructions)، ويُتهم بالغباء من قبل المدرسة والوالدين إذا فشل في تطبيق لعبة معينة تطبيقًا ببغائيًا. بينما جاء التحول اللا مسؤول في برامج الأطفال وأفلام الكارتون (المتحركة) العابرة للقارات والثقافات، لتقتل قدرات الخيال والخير والجمال والبراءة لدى الأطفال، لصالح الخيال التقني الممثل بالسوبرمان والوطواط والسبايدر الأمريكي المريض. ان فئة الشباب اليوم على أعتاب العشرينات هم من خريجي ثقافة الأطفال [New Media] الأمريكية، وهو ما يجعلهم يختلفون عن سابقيهم في خصائص سلوكية وذهنية ونزعات مادية محددة، يجمعهم بقواسم مشتركة مع أقرانهم من جهة ؛ ومن جهة ثانية، هم ضحايا أزمة الهوية جراء ارتباطهم ببيئات ثقافية مختلفة بنيويًا عن بيئة الغرب التي أنتجت تلك السياسة.

احتدام أزمة الهوية لدى شباب اليوم وعدم وجود بدائل مرنة، نقل الأزمة إلى طور (المعضلة) ونقلهم من أنصار مؤيدين إلى مناهضين شرسين لكل شيء غربي. منعكسة بالتالي على سلوكهم المتمرد الموجه ضدَّ الغرب والمتغذي بعوامل وأفكار وجدت فيهم عجينة طيعة لخدمة أيديولوجية سياسية مناهضة للحضارة، مما زاد مساحة الشرخ داخل ذوات هذا الجيل، وانعكاساته النفسية والفكرية والسلوكية الضيقة.

إن من الطريف حقًا، أن تتمتع الأجيال السابقة (قبل السبعينيات)، بمرونة فكرية وفضاءات نفسية أضعاف ما تَحقَّق للأجيال المتأخرة، وبشكل مطرد، أي أن السبعينيين أوفر حظًا من أطفال الثمانيين، وهؤلاء أوفر حظًا من الجيل اللاحق.

ان المشهد الاجتماعي لكل بلد، هو تلك الفئة المحصورة أعمارها بين العشرينات والأربعينات. وهو ما يرسم أنماط الظواهر الاجتماعية والسلوكية المؤثرة في المجتمع، وهو ما يوضح حجم القلق الاجتماعي للأجيال الراهنة. فكلما افتقد الأفراد الفرصة الكافية لتحقيق التنمية الذاتية واستكمال دورهم المستقل في صياغة شخصياتهم الخاصة؛ زادت نسبة التكرار في المشهد الاجتماعي، وهو ما نشهده اليوم على صعيد المظاهر وقصات الشعور واللِحى والثياب وأنماط السلوك والخطاب التلقيني.

لقد وقعت فسحة الحرية المحدودة في حياة الطفل المعاصر ضحية قرصنة المؤسسة، فاختزلت كيانه ومسخت شخصيته وألغت تفكيره الخاص... ومصدر المفارقة، أو الإشكالوية، أنه بينما هيأت سياسات الإعلام الغربي في العقود الأخيرة كمؤسسة لتحويل الأفراد إلى نسخ مكرَّرة عن نماذج وقوالب مدروسة؛ يعتقد الخطاب التقليدي العربي نجاحه في سحب البساط من الغرب لصالح أغراضه. والضحية بين الاثنين هو الطفل، الإنسان، المطلوب منه، والمفروض عليه تحمل تبعات ما يفعله الآخرون، مع حرمانه من دوره الأدنى، لتحديد خياراته.

•

-المسؤولية الأخلاقية والدور الاجتماعي للفرد

الاستئثار والأنانية من ملامح عصر العولمة، التي قلَّصت مساحة المعيار الأخلاقي أو المساهمة الفردية في الفعل الاجتماعي. وهي سمة مغايرة أخرى عن أجيال الستينيات وما قبلهم. إن الاهتمام الأكبر يذهب اليوم إلى ما يحصل

عليه الفرد من مكاسب ويجنيه من فوائد ، دون اعتبار لأهم مسألتين ؛ ما ينعكس على الآخرين من أضرار مقابلة ، مدى أحقيته وشرعية ما يكسبه. بمعنى آخر ، أن التفكير بالانعكاسات الاجتماعية أو الآثار الأخلاقية للممارسات اليومية لم يعدْ شاغلاً لدى الكثيرين ، واستحوذ الاهتمام بالمظهر الخارجي على الاعتبارات السلوكية في مرآة المجتمع. وبينما يجتهد هؤلاء في تبرير وتنزيه سلوكهم ، واتهام الآخر بالجحود والسوء ، فإن الإسفاف يقود إلى مصادمات وتشظيات اجتماعية غير محمودة ، والسبب هو العجز عن تحقيق الانسجام بين بيئة قيمية مستوردة ، وقيم مادية كاسحة تسحق من لا يتماشى معها.

إن زمن البطولة الفردية والمآثر الاجتماعية والذكرى الطيبة قد أدبر ، وظهرت أنماط وقيم جديدة أكثر نفاقًا ورياءً مما يحتمله التأويل اللغوي للمفردة. وهو جزء من مفهوم رأسمالي ، يترجم قلق الشخصية في ظل انعدام ضمانات اجتماعية وبيئية ، تجعل الهروب إلى المادة والمستقبل أقصر الطرق لمراوغة الاضطراب ، والإيغال في الفعل طريقًا لإسكات الضمير.

(الحكمة الصحيحة تظهر فيمن يتبعونها)... لكن هذه الحكمة مكلفة بكل الحسابات ، والزمن تدور عجلاته بسرعة ، وقد تسحق المتباطئين.

في نظرية الاحتمالات ، تتعدد الطرق ولكن طريقًا واحدًا هو الأفضل ، ولكن المدير الإداري اليوم لا يبحث عن البديل الأفضل ، وإنما الأقل كلفة والأكثر اختصارًا للوقت. وبالتالي ، فإن نمو البغاء وعروض الأزياء والتوجه لأغاني البوب وأعمال السمسرة ومافيات السرقة والقرصنة ، يحقق وفورات مالية خلال فترات قياسية ، وهذا نمط العصر: الكسب السريع أولاً وليس الكسب الشريف. الكسب السهل وليس المبدأ الخلقي... قيمة الكائن الإنساني هي آخر شيء يشغل التيار الجديد. كان أجدادنا يقولون: القرش الحلال ينمو ببطء ، والقرش الحرام ينمو كالحريق... هذا هو الفرق بين (بزنس) اليوم وتجار الأمس.

قد لا تكون الظاهرة جديدة بالمرة ، لكنها ازدهارها جاء مرتبطًا بمنظومة قيمية

كاسحة وفي إطار نظام عولمي عابر للقارات والثقافات. فأسفر عن تشابهات وتجاذبات كثيرة بين أبناء بيئات ثقافية مختلفة. في نفس الوقت أظهر اختلاف انعكاسات أبناء البيئات المختلفة [الأفارقة، أميركا اللاتينية، الصينيون، الهنود، العرب] ودرجة ذوبانهم في المجرى العام على اختلاف معدل قلق الشخصية واهتزاز الهوية بينها. فالعولمة تبقى في أسوأ الاحتمالات مرآة مواجهة وموشور تحليل الثقافات إلى عناصرها الأساسية. والمرحلة التالية للذوبانات هي اختزالات وتلاشيات واستحالات متسارعة.

ضمن هذا المنظور، ينقسم المجتمع إلى ظاهرتين أو قسمين: التيار المندرج والمنساق مع الموجة الجاهزية، والتيار العقلاني المحافظ على القيم الاستراتيجية، والمدرك لسرعة انحلال القيم السريعة الطارئة وآثارها الكارثية المدمرة. وهذا ما يضاعف أهمية الرأي الآخر، والموقف البديل، لتعويض الفراغ الأخلاقي والنفسي الذي تشكله الحضارة التكنولوجية أو الإلكترونية أو العولمة اصطلاحًا إمبرياليًا مبطنًا.

إن المجتمع أكثر حاجة اليوم، وغدًا، لمراكز إشعاع اجتماعي تتجسد في أنماط السلوك والفكر والمعاملة. فالترجمة الحقيقية للثقافة والوعي، تبقى قاصرة إن لم تنعكس في ثلاث: الفكر والشخصية والسلوك.

الفرد في مصيدة/

شبكة - «الإنترنت والهاتف الخلوي»

"It would be nice to know how many more CCTV cameras they are going to put up before calling us the United Camera Kingdom" Foolsold, London

" If we don't do something now about the invasion of our privacy then pretty soon we might find we have no liberty to protect".

- Paul, Reading

- مواطنين إنجليز في استفتاء حول الموضوع لجريدة (London Lite) الشعبية ليوم الجمعة الثالث من نوفمبر ٢٠٠٦-

•

(الشعب مصدر السلطات)، عبارة دخلت في الإرث السياسي للمجتمع المدني المعاصر، يقابلها عبارة (حماية الإنسان وتحسين أوضاعه غاية كافة السياسات والإجراءات).

وعلى قدر صحّة العبارة الأولى التي تروّس بها مقدمات القرارات والقوانين والمعاهدات والصفقات والأحكام القضائية المتعلقة بالسجن والطرد والإعدام، تصحّ العبارة الثانية في ارتباطها بالتجسس الإلكتروني [Please note that CCTV camera in operation for your safety].

لقد كان فضح الاتحاد السوفياتي لبنود صفقة [سايكس بيكو] إثر ثورة أكتوبر (١٩٢٣م) نصرًا إعلاميًا للشعوب المقهورة يومذاك، لم تعقبه أية فضيحة دولية في هذا الإطار.

نمط الفضائح انتقل من صعيد الدول والصفقات ، إلى الممارسات الداخلية والأشخاص ، ففي هذه الفضائح يمكن تمويه مراكز المسؤولية وتزوير البيانات بين اللغط الإعلامي والموظفين الصغار.

وكما أن فضائح الاغتيال السياسي في بلدان أوربية تنسب إلى موظفين صغار في السفارة يتم (تكبيشهم) فداء لبقاء – الرأس– أو اعتباره حادثًا شخصيًا ، مثل صور تعذيب السجناء في (غوانتانامو) أو (أبي غريب) ، وتبرئة رجالات الحكومة من وزرها ، فإن صفقات (تجارة) التجسس وبيع المعلومات عبر (أفراد) الدوائر الأمنية يُسجَّل في خانة (الفساد الإداري) والتصرف الشخصي ، الذي ينتهي بإقالة الشخص وفتح (تحقيق) إداري أو قضائي بالموضوع ، لإسكات الإعلام والرأي العام.

إن ربط السياسات (الأمنية) للبلدان بيافطة (الأمن القومي) كما وثقتها مضاعفات الحادي عشر من سبتمبر (٢٠٠١م) في الولايات المتحدة الأميركية ، منح المؤسسة البوليسية في بدايات هذا القرن طراز (حماية وسلطة) المؤسسة العسكرية أيام الحروب العالمية في القرن الماضي.

وكما كان شعار (كل شيء من أجل المعركة !) مسوغًا لتجاوزات الدولة وصمت (المواطن) ، صار شعار (الأمن أولاً...) – القشة – التي تكسر ظهر المواطن ، ومؤسسات المجتمع المدني الحرَّة من أي اعتراض أو نشاط مناهض.

•

خدمة الكمبيوتر ومصيدة الإنترنت

لا غنى للشخص أو العائلة اليوم ، عن جهاز كمبيوتر للدراسة أو العمل أو التسلية أو الاتصالات والتواصل مع الأصدقاء والأهل ، بل هو يدخل في معظم مجالات الحياة المعاصرة. لكن الكمبيوتر ليس مجرد آلة صماء ، ويختلف عن

الراديو والتلفزيون والثلاجة والغسالة والدراجة، بأنه لا يمكن استخدامه بدون برنامج. وتباع البرامج منفصلة عنه في السعر، وأحيانًا غير مركّبة في الجهاز. ولا يمكن في هذه الحالة برمجة الجهاز من غير تسجيله لدى الشركة المنتجة للبرنامج.

في حالات معينة يكون البرنامج مركّبًا في الجهاز لمدة تجريبية، على أن يتم تسجيله خلال ثلاثين يومًا ، وعند عدمه يتوقف عمل الجهاز مما يقتضي الاتصال بالجهة المعنية أو شخص مختص لإعادة برمجته. ولا مفرّ في هذه الحالة من الاتصال بالمجهّز، وتسجيل تشغيل البرنامج عنده، بواسطة رقم الإنتاج الملصق في مكان في قفا الجهاز أو في مقدمته، مع (code) برنامج التشغيل. وفي غير ذلك يعتبر تشغيل الجهاز منافيًا لحقوق الحماية الدولية، ويمكن للجهات الرسمية مصادرة الجهاز في حملات مداهمة أو تبليغ سرّي. وفي بعض البلدان تمَّ مصادرة آلاف الأجهزة لاستخدامها برامج غير مرخّصة.

عبر تسجيل الجهاز لدى الجهة المعنية، يتطلب تثبيت اسم الشخص وتاريخ تولده وعنوانه ورقم هاتفه، ومن خلالها تستطيع الجهة المعنية الإطلاع على كل العمليات الجارية داخل الجهاز.

لدى تسجيل عنوان إلكتروني [e.mail] لدى إحدى الشركات الإلكترونية، تجد الإشارة الصريحة، التي تقتضي الإطلاع على سلسلة توصياتها وأنظمة عملها والموافقة عليها بالمصادقة [o.k] ليتحقق ذلك.

ويتطلب تزويد الشركة بُجملة معلومات وبيانات شخصية لقاء الموافقة. عبر ذلك تتمتع الشركة الأصلية بإمكانية الإطلاع على المعلومات والعمليات الجارية في صفحة الشخص أو بريده الإلكتروني. ولا يمكن تحديد حجم اتصالاتها وارتباطاتها في هذا المجال. الجديد هنا، أن الشخص الذي يراقبك لا يجلس معك في نفس الحجرة، ولا يجعلك تشعر بأنك تحت المراقبة.

مع بدء تصفح الشبكة ، تظهر جداول تحذير أمنية لا يمكن تجاوزها ، وعدم القبول يعيق ظهور الصفحة المطلوبة. إن الجوهر هنا ، أن كل ما تفعله ممكن الإطلاع عليه ، ويعني عندها قبول الشخص الضمني بذلك ، مما يبطل أي ادعاء قانوني بالمقاضاة حول المسّ بحقوقه الشخصية.

•

الهاتف الخلوي (الجوال)

يطلق عليه الإنجليز الموبايل [Mobile] ، بينما يدعى في بلاد أوربا الأخرى [Handy]. وهو يضاهي من حيث التقنية الإلكترونية والاستعمالية مذياع الترانسستور [Transistor] ، لدى شيوعه عقب الحرب العالمية الثانية وما حقق من نقلة نوعية في حضارة الاتصالات. لقد تضاعف إنتاج واستهلاك الترانسستور بعد الخمسينيات بما ساهم في تقريب الأواصر الثقافية (ثقافة المعلومات) بين أجزاء العالم المتقاصية. ومع تضاعف كمية إنتاج الأجهزة وانتشارها في جنوب العالم وشرقه ، استمرت متناهية في الصغر ، فتجاوزت أحجام (كتب) الجيب ، بالإضافة إلى انخفاض أسعارها وشعبيتها. ولكنّ هذا التناهي في الحجم والتسعيرة ، وضع نهاية لها أيضًا ، عبر ظهور أجيال وأجهزة جديدة ، شكلت تعويضًا عن خدمات المذياع (الفقيرة) ، مثل أشرطة وأجهزة التسجيل (كاسيت) ، وتطور التلفزة وأجهزة عرض الصورة والصوت [Video] وانتشارها.

وإذا كان الترانسستور (المحمول) قد انتهى في صورة (الهاتف) المحمول الذي يتمتع اليوم بخدمات تقنية لنقل الصوت والصورة وتبادل الإيعازات الصورية والصوتية عبر الأثير ، فإن أجهزة التلفزة والفيديو قد انعكست في تقنيات الكمبيوتر وخدمات الإنترنت ذات الشاشة المتناهية في الصغر والسعة والإمكانيات على صعيد واحد.

هذا التطور التكنولوجي الإلكتروني السريع لم يحقق عادات استهلاكية وطفرات في الاقتصاد والتجارة ، وإنما حدّ من استخدام المذياع [Radio] والتلفزة [Television] بشكل فظيع.

وإذا كان من النادر وجود جهاز مذياع لدى قطاعات كبيرة من السكان ، لا سيما الشباب ، فإن أجهزة التلفزة التي تعاني من منافسة انتحارية مع خدمات الإنترنت ، ستشهد انسحابًا فجائيا خلال العقد المقبل ، يتحول معه إلى جزء من تراث الأنتيكا [Antica]. وليس من المستبعد هنا ، أن مؤسسات الدولة التي بدأت بخصخصة [privatization] مؤسسات الإذاعة والتلفزة في العقدين الماضيين ، سوف تلجأ لحماية هذه التقنيات من الانقراض النهائي من الاستعمال عبر إجراءات وسياسات معينة.

•

-مظاهر خارجية وغايات خفية...

هذا الانتشار الواسع والمتصاعد لهاته الخدمتين ، يكشف مساحة الاتصالات الخاضعة للمراقبة ، وحجم السكان الخاضعين للمتابعة الأمنية.

وفي حال بنك الجينات الذي يغطي نسب متفاوتة من تقسيمات السكان داخل بريطانيا ، تسعى الدوائر المعنية تطويرها لتشمل الجميع. فإن الرقابة الإلكترونية عبر استهلاك الأجهزة التقنية والإلكترونية الحديثة ، تضمن سيطرة أوسع من الناحية الدمغرافية ناهيك عن مميزات عملية أخرى مثل زهد التكلفة واستمرار عملية الرقابة مدى الحياة (!).

وكما ورد في الفصل السابق حول كاميرات التجسس الصوتي والصوري في الأماكن العامة ، فهو يعني الحديث الذي لا يتم عبر استخدام الهاتف النقال أو الإنترنت.

•

- حجم توزيع أجهزة الموبايل والإنترنت في دول الاتحاد الأوربي (*)...

-البلد	حجم السكان	موبايل	إنترنت
ألمانيا	٨٢,٣٩٨	%٧٨	%٤٧
أسبانيا	٤٠,٢١٧	%٩٢	%١٥
إيطاليا	٥٧,٩٩٨	%١٠٢	%٣٤
بلجيكا	١٠,٢٨٩	%٧٩	%٣٣
بلغاريا	٧,٥٣٧	%٣٣	%٢٠
برتغال	١٠,١٠٢	%٩٠	%١٩
بريطانيا	٦٠,٠٩٤	%٨٤	%٤٢
بولنده	٣٨,٦٦٢	%٤٥	%٢٣
تشيكيا	١٠,٢٤٩	%٩٦	%٢٩
تركيا	٦٨,١٠٩	%٣٤	%٧
دنمارك	٥,٣٨٤	%٨٩	%٥١
رومانيا	٢٢,٢٧١	%٢٣	%٨
سلوفاكيا	٥,٤٣٠	%٦٨	%٢٦
سويد	٨,٨٧٨	%٨٩	%٥٧
فرنسا	٦٠,١٨٠	%٧٠	%٣٧
فنلنده	٥,١٩٠	%٩٠	%٥١
نمسا	٨,١٨٨	%٨٨	%٤٦
هنغاريا	١٠,٠٤٥	%٦٨	%٢٣
هولندا	١٦,١٥٠	%٧٧	%٥١
يونان	١٠,٦٦٥	%٧٨	%١٥

- المصدر : The Europe Diary, 2005/2006

obeikan.com

- مظاهر خارجية وغايات خفية...

هذا الانتشار الواسع والمتصاعد لهاته الخدمتين ، يكشف مساحة الاتصالات الخاضعة للمراقبة، وحجم السكان الخاضعين للمتابعة الأمنية.

وفي حال بنك الجينات الذي يغطِّي نسبًا متفاوتة من تقسيمات السكان داخل بريطانيا ، تسعى الدوائر المعنية تطويرها لتشمل الجميع ، فإن الرقابة الإلكترونية عبر استهلاك الأجهزة التقنية والإلكترونية الحديثة تضمن سيطرة أوسع من الناحية الدمغرافية ناهيك عن مميزات عملية أخرى مثل زهد التكلفة واستمرار عملية الرقابة مدى الحياة (!).

وكما ورد في الفصل السابق حول كاميرات التجسس الصوتي والصوري في الأماكن العامة ، فهو يعني الحديث الذي لا يتم عبر استخدام الهاتف النقال أو الإنترنت.

•

أليس للفرد أن يتساءل عن مغزى التطور السريع والرخيص في هذه المجالات ، دون غيرها. هل التكنولوجيا الرأسمالية ، التي انطلقت يدًا بيد مع الثورة الصناعية وحركة الاستعمار الحديث في القرن السابع عشر ، تتبع الجمعيات الخيرية والمنظمات الإنسانية كالصليب الأحمر ومنظمة العفو الدولية والكاريتاس لمساعدة المعوزين والمضطهدين وفقراء الأمم ، لتبذل لهم نعمة الموبايل والإنترنت بأسعار رمزية قياسًا إلى أسعار الأدوية وبعض الأغذية الأكثر ضرورة ولزومًا لحياة البشر ، سيما وأن الأزمة التي تهدد المستقبل تتعلق بالأمن الغذائي [شحة الغذاء] وليس [شحة الاتصالات].

يقول خبراء الإعلام والاتصالات [Media & Communication]، إن المعنى الحقيقي لانتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية [١٩٣٩- ١٩٤٥م] ما كان ليكتمل بدون (ثورة) الترانسستور. بمعنى أن حرص الحلفاء [الولايات المتحدة

الأميركية وبريطانيا والاتحاد السوفيتي وفرنسا] على النصر المعنوي الإعلامي لم يكن أقلَّ من حرصها على تحقيق النصر العسكري الميداني.

لقد أدَّى انتشار الأخبار السيئة في صفوف المحور إلى انكسار المعنويات القتالية وتقديم هدايا سحرية لقوات العدو ، بل أن صدى انتصار الحلفاء في أفريقيا وآسيا كان أكبر منه داخل أوربا – ميدان المعارك الرئيسية –. لقد حوَّلت هذه الأجهزة الصغيرة العالم كلّه ، ساحة لنشر أخبار المعارك وصدى الانتصارات ، فكان الصدى الإعلامي لهزيمة المحور [ألمانيا وإيطاليا واليابان] في أفريقيا وآسيا نصرًا سياسيًا ، هيّأ لمرحلة جديدة من النفوذ والتبعية السياسية والاقتصادية في النصف الثاني من القرن العشرين.

حسب هذا المستوى من التفسير ، ما كان لأحداث انفجارات نيويورك [٢٠٠١م] هذا الفعل النفسي والدولي بدون خدمات النقل الفضائي المصور للحدث. لقد انتقد كثيرون طريقة عرض قناة [CNN] لنبأ وما تركته من آثار نفسية هستيرية ومدمرة على نفوس النساء والأطفال والشيوخ والمرضى. فالتهويل والمبالغة والانتشار والتكرار ، هو الذي حوّل الحدث (المحلي) إلى حدث (عالمي) ، وهيّأ الرأي العام العالمي لمرحلة ما بعد سبتمبر ، التي ما كان يمكن أن تمرّ بلا عقاب أو نتائج سياسية وعسكرية مباشرة.

واليوم ، بعد أن حدث ما حدث ، والشرق الأوسط (الكبير) يتمرغ في وحل (التخبّط) الأميركي ، لا أحد يعنّ له دراسة أصل الظاهرة وعوامل تضخيمها بدل معالجتها وتقليل آثارها التدميرية.

لا أحد ، يعنّ له تأمل الدور الذي لعبته شبكة الإنترنت حتى الآن ، في خدمة أهداف الحرب (على الإرهاب) بالمفهوم الأميركي الهونتنغتوني. ما هو السرّ وراء التناسل الجرذي للمواقع الإلكترونية الناقلة للأحداث بما فيها تلك المناوئة (ظاهريًا) للأمريكان ، سواء في حرب أفغانستان أو حروب العراق ؟. وما هي الفائدة المنعكسة على العرب أو العراق من خدمات الشبكة والمواقع تلك ؟.

قد تختلف الآراء كالعادة، في الأمر. ولكن عمليًا، حجم الهزيمة (الإعلامية) والتشرذم الإعلامي في صفوف العرب والعراقيين، أكبر من حجم الهزيمة العسكرية والتشرذم السياسي في الميدان.

على هذا الصعيد، يمكن تلمس الدور الذي لعبه جهاز الموبايل الصغير في إثارة الزوبعة الإعلامية لحادث الثلاثين من ديسمبر في حفرة مركز استخبارات الكاظمية (العراق) على صعيد الرأي العام الإقليمي والدولي.

إن أهمية ما يحدث اليوم في أي مكان من العالم، ليست في حجمه وآثاره المباشرة، وإنما في مدى انتشاره الإعلامي ومضاعفاته غير المباشرة. إن كثيرًا من المنظمات والجمعيات والواجهات والأحزاب و(الطوائف)، لها وجود (إعلامي) إلكتروني أكثر مما هو كيان حقيقي قائم على الأرض. والعكس صحيح أكثر، إن أي جمعية أو جماعة، بدون تأثير (إعلامي) غير قادرة على الحياة والتواصل.

من أوائل الخدمات التي (غزت) العراق عقب الاحتلال هي خدمة الهاتف النقال، ومع تعذر وصول أو استمرار كثير من خدمات البناء وتعمير البنية التحتية، استمرت شركات الهواتف النقالة وأطباق التلفزة بجدارة، كشركات وحيدة في ظل الفوضى الأمنية.

•

- النتائج المستخلصة

إذا كانت بداية الترانستور والكمبيوتر، اتسمت بخدمة الأغراض العسكرية والحربية، فإن غاية خدمات الإنترنت والهاتف الخلوي تصبّ في خدمة الأغراض الأمنية (البوليسية)، وتسهيل عمليات التجسس الشخصي واختراق حياة الأفراد الخاصة.

من الأنظمة المستعملة في سجون بعض البلدان المتقدمة، جواز قضاء السجناء

أوقات محددة أو أعطال دورية خارج مبنى السجن، وبدون مرافقة البوليس، بعد ربط جهاز صغير في رسغ أو قدم السجين، له اتصال مباشر بإدارة البوليس حول مكان وجوده وحركته.

ولا بدّ أن كل صاحب هاتف نقال، استلم تلك الرسائل الإلكترونية من شركة الاتصالات الخاصة لهاتفه وهي تهنئه لدخوله أجواء البلد الفلاني وتدله إلى امتيازات أسعار الاتصال المدعومة لكل دقيقة، أو اسم الشركة الزميلة التي يمكنه الاتصال بها للاستعلام حول خدماتها.

إن شركة الاتصالات (الهاتفية) المرتبطة بشبكة دولية، مقرات أغلبها في الولايات المتحدة الأميركية. وهي لا تحدد فقط تنقل صاحب (الهاتف) من بلد إلى آخر [Roaming]، وإنما ترصد حركته من مدينة إلى أخرى ومن بقعة لأخرى داخل المدينة، وتميز وجوده في العراء أو داخل مبنى إلكتروني أو بناء من عدة طوابق أو داخل سيارة، وهي أمور لا يمكن أن تعنّ للفرد أو تخطر في خيال شاعر.

إذا كان ذلك على صعيد تحديد (إحداثيات المكان) بالمفهوم العسكري، فماذا عن التنصت لاتصالاته الهاتفية وأحاديثه المتنوعة والتي يمكن لأي كاتب قصة مبتدئ أو كاتب (ضبط) أن يحصل بجمعها وتوثيقها على أكثر من رواية تجمع بين خصائص الدراما والكوميديا والغزل والجريمة واللغز والأدب المكشوف. ناهيك عن تبادل الأخبار والتعليقات السياسية والدينية والفكرية حسب طبقات المتحادثين والمتواصلين.

قبل عامين، أعلنت الدائرة الفدرالية في ألمانيا أن الأقراص المتوفرة حتى الآن، تتيح لها إمكانية الاحتفاظ بالاتصالات الهاتفية والإلكترونية في عموم ألمانيا لمدة ثلاث سنوات، وأنها تبحث في إمكانيات تطوير قدرات الخزن.

وثمة تعاون دولي بين الدول المتقدمة والمتحالفة في هذا المجال. وبهذه

الخدمات تمَّ الوصول إلى أكثر من حالة في ملابسات عمليات الإرهاب داخل ألمانيا وأسبانيا وإيطاليا، ويتم الكشف بين مدة وأخرى عن جماعات جديدة من شبكات الإرهاب أو الدعارة أو المخدرات الدولية.

في مكان سابق، تمت الإشارة إلى بنوك الجينات في الدولة العصرية والفايلات الجينية [Genfiles] في دوائر الداخلية لكل شخص. وهنا يمكن الحديث عن ملفات اتصالية [communication files] لكل شخص توثق جميع اتصالاته الصوتية (mobile, chat) وصورية [email, message] على مدى فترة معينة، إن لم تتطور الإمكانات لقدرات خزن لسنوات طويلة، بالعشرات أو المئات، بحيث يمكن لأجيال لاحقة الاستفادة من المعلومات الواردة في بعضها، وربما يستشف من بعضها نبوءات أو معجزات تحدث بعد قرون، كما استشف البشر من نصوص وحفريات العهود القديمة.

طالما غضب بعض أفراد الأجيال السابقة وهم يكتشفون أن أحد عمال الهواتف البريدية يتنصتّ على محادثاته الهاتفية مع صديق أو صديقة، أو أن دائرة البريد تلجأ للإطلاع على مضامين رسائله السياسية أو – الغرامية – بعد أن تفتحها بطريقة (البخار) ؛ لكن أبناء اليوم يندر أن يغضبوا أو يهتموا لوجود جهة تسجل محادثاتهم أو تراجع رسائلهم الإلكترونية، أو أن الشبكة ترفض خدمة توصيل رسائل معينة، أو انقطاع خدمة الشبكة أثناء قيامه بعملية منافية لشروط الخدمة أو الحماية الدولية.

ان المعادلة في هذه الحال، غير متوازنة الطرفين، بين الدولة والفرد، أو بين الشركة (الدولية) والمستهلك.

ولا يرى كثيرون، – راضين أو مكرَهين– ، ضيرًا في التنصت ومراقبة اتصالاتهم، طالما أن الغرض من ذلك لحمايته وخدمته الشخصية، من الشرّ المتربّص به، أو بالمجتمع المدني الحديث جراء صراع الثقافات.

في حقيقة الأمر، وكما أشير في فصل سابق، أن الفرد (العالمي) اليوم لا يعرف المدى التي تصل إليه معلوماته ولا الأشخاص الذين يتداولون فيها ويعرفون عنه أشياء لا يعتقد أو يذكر أنه يعرفها.

الفرد اليوم هو فرد (عالمي) رغمًا عنه، وأنه بقدر مواكبته واستهلاكه لخدمات تقنيات الاتصال الحديثة، يزداد شهرة وعالمية على أولئك الأقل تداولاً للخدمات الاتصالية أو يتعاملون بها بالكاد.

وهذه هي إحدى صور القرية (العالمية)، أو حصيلة الأحلام العولمية لمثقفي السبعينيات وهم يتحدثون عن يوم يكون العالم فيه [مجرد قرية صغيرة]، وأن الثورة المقبلة هي ثورة اتصالات ومعلومات.

لا أحد توقع بالتأكيد أن الاتصالات ستخدم التجسس على الحريات الفردية، ومرثاة الرفاه الاجتماعي والمجتمع المثقف وعالم الأمن والإخاء والمساواة.

•

- التجسس الإلكتروني على الأفراد : ذرائع غير مقنعة وغايات غير مكشوفة

العبارة التي يوردها ميلان كونديرا في روايته (الهوية) (•) على لسان بطلته الرئيسية : " هل تبين لك أنك حتى في بطن أمك، الذي يقال عنه "مقدَّس" لست آمناً. أنهم يصورونك، يتجسّسون عليك، لن تفلت منهم حيًّا، هذا أمر يعرفه كلُّ الناس، ولكنك لا تفلت منهم حتى قبل ولادتك، كما لن تفلت منهم بعد موتك!".. تتضمن دلالة كبيرة في نقد (المدنية الحديثة)، عبر محاصرة الكائن البشري من كافة الجوانب وتحويله، بالنتيجة، إلى مجرد أداة (أسيرة)، بيد القوة السوداء الحاكمة، أو مجرد (فأر) في مختبرات العولمة.

في جدول النكات العراقية التي انتشرت أيام الثمانينيات، أن شخصًا رأى في

• ميلان كونديرا - (الهوية) - رواية - ترجمة : د. انطوان حمصي- دمشق- ١٩٩٨- ص٤٤

المنام حصول انقلاب على الحكم ، روى حلمه لأحد أصدقائه ، فوشى به الصديق لدى السلطات فأُعدم. وكان تعليق ضابط التحقيق : علينا أن نضع (كاميرا) في رأس كل مواطن ، لنعرف بأي شيء يفكِّر في النهار وماذا يحلم عندما ينام.

من المحتمل أن تكون هذه إحدى تأويلات رواية (قصر الأحلام) للكاتب الألباني إسماعيل كاداريه [•]. لكن ذلك لا يخرج بالموضوع عن إطاره ، فكرة السلطة والهيمنة والعبودية ، الاستبداد والاستعباد.

•

أنماط التجسس التقليدية...

في ما يوصف بعصور الهمجية البشرية ، كان الاعتماد الرئيس على الجهد العضلي (القوة الجسمانية) في تحصيل الحاجات الفردية والجماعية ، وكذلك ضمان الأمن والاستقرار السياسي والعسكري. تلك المراحل اتسمت بسيطرة قوى الطبيعة على مفاصل الحياة. فكان الخوف من الطبيعة والمجهول مبررًا للاعتماد على العنف والعضل وبناء الجيوش.

بيد أن تطور قدرات البشر العلمية والعقلية وإمساكهم بمفاتيح وأزرار كثير من أسرار الطبيعة والميكانيكا في المجتمعات المدنية لم يضع نهاية للخوف (من الآخر / الغريب / المجهول). إن الذي اختلف مع مرور الوقت ، هو كيفية التعامل مع المجهول. بكلمة أخرى ، كيفية الوصول إليه واستكناه جوهره وأبعاده.

هكذا ظهرت فكرة العيون / (البصاصين) ، أو المخبرين (المخابرات) ، والوكلاء (الجواسيس). وكان هؤلاء يخترقون الأوساط المعادية بصفات العاملين في

• إسماعيل كاداريه - (قصر الأحلام) - رواية.

التجارة أو مسوح رجال الدين. ومنه أن الرسول ترك عمَّه في مكة ليكون له عيناً على تدابير قريش ضد المسلمين.

وقد لقى كثير من الأوربيين الرحالة في البلاد العربية مصرعهم في القرون الوسطى وما بعدها، أثر انكشاف أمرهم بين القبائل والشكّ في حملهم معلومات وأسرار تستخدم ضدّهم، وكان بين أولئك من كان في مهمة علمية أو بعثة ملكية كالبعثة التي أشرفت عليها ملكة الدنمارك إلى الجزيرة العربية. رغم أن بعضهم كان يتحدّث اللغة العربية ويتظاهر بالإسلام ويحجّ إلى مكة وبيت المقدس، وصولاً إلى جون (الحاج عبدالله) فيلبي ولورنس (ملك العرب).

وفي بلادنا كانت الشبهة تجعل كل من يؤيد الإنجليز (جاسوسًا لهم)، أو يؤيد (ألمانيا) جاسوسًا لها(•).

•

الدولة العصرية ومبدأ (للجدران آذان)...

في مسرحية عادل إمام (شاهد ما شافش حاجه) يقول المتهم للمحقق : هو أنا أعرف اسمي أكثر من الحكومة !. تبين إلى أي مدى شاع اتهام الحكومات العربية السابقة بالتجسس على المواطنين، وبما سوغ تسميتها جمهوريات الخوف، أو وصفها بالدول البوليسية أو المخابراتية.

لم يخطر لأحد، أنه بعد التخلص من تلك الأنظمة، يتحول العالم إلى خلية مخابراتية تجسسية، لا يستطيع مستخدمو الهواتف النقالة والإنترنت التخفي ثانية عن الرقيب السري/الإلكتروني.

لقد أصبحت أجهزة (المراقبة وجمع المعلومات) جزءًا رئيسيًا من الأجهزة الأمنية للدولة الحديثة. وبالغت بعض الأنظمة بتنويع وتصنيف أجهزتها الأمنية

• **قضى المطرب العراقي المنولوجست عزيزعلي ثلاث سنوات في سجن العمارة (في الأربعينات) إثر الإدعاء عليه، بعلاقته بألمانيا الهتلرية.**

والاستخبارية وزيادة حجمها ومواقع انتشارها. ولعل المرحلة الأخطر بين ذلك، أن يناط بمؤسسات الدولة وأعضاء حزب السلطة ، والأهلين من الحرفيين والمتماحكين يوميًا مع المواطنين ، بمهمة جمع المعلومات وتبليغ السلطات دوريا بالمتغيرات.

وكان المخاتير وأصحاب المقاهي والنوادي العامة وسواق الأجرة في صدارة وكلاء الأمن. بل أن الدولة (الشمولية) سخّرت كل الإمكانيات المتاحة بيدها لجمع ما يمكن من معلومات عن الأفراد الخاضعين لها.

واتخذت هذه مسميات متنوعة وتمويهية باختلاف الخطاب الإعلامي والأيديولوجي ، كالحرس الوطني ، الأمن المدني ، البوليس السري ، المخابرات والاستخبارات ، حراس الثورة أو الجمهورية.

ومن مظاهر تزايد أهميتها لدى أنظمة كثيرة ارتباطها المباشر بمكتب رئيس الحكومة (الدولة) ، وتحكمها في قطاعات الجيش والشرطة ومؤسسات الدولة والمجتمع المختلفة. كما يظهر من انتشار صيتها خارج الحدود الإقليمية مثل وكالة المخابرات المركزية (CIA) في الولايات المتحدة الأميركية ، و(KGB) في روسيا ، و(B15) في بريطانيا ، والموساد (إسرائيل) ، والسافاك والباسداريه (إيران الشاهنشاهية والجمهورية) ، والمباحث (مصر) ، والمخابرات والاستخبارات (العراق وسوريا).

وقد اشتهرت فضائح عديدة عن نشاطات هذه الأجهزة خارج حدودها الوطنية ، لاسيما ما يتعلق باغتيال المعارضين السياسيين ، وآخرها حادث اغتيال الكسندر ليتفينكو (٤٣ عامًا) (•) المسؤول السابق في المخابرات الروسية في العاصمة البريطانية يوم الخميس الثالث والعشرين من نوفمبر الماضي ، والتي تشير

• نشرت وسائل الإعلام قصة موت العميل الروسي السابق الكسندر ليتفينكو بعد تعرضه للتسمم أثر تناوله وجبة (مسمومة) في مطعم وبار (Itsu) في البيكاديللي وسط لندن في الأول من نوفمبر. وقد عثرعلى آثار [polonium 210] السامة في المطعم ومكان قريب من سكنه. ولم يفلح الأطباء في إنقاذ حياته لتشبع جسمه بمركبات الغازات السامة التي أوردت الصحف تفاصيلها.

أصابع الاتهام إلى الحكومة الروسية.

والمفارقة هنا ، أن التجسس على المواطنين ، كان من التهم الجاهزة اللصيقة بالدول الاشتراكية إلى جانب انعدام الديمقراطية وحقوق الإنسان.

لكنها اليوم صفة عامة للدول الغربية ، والتي اتخذت من أحداث نيويورك ٢٠٠١ ، ذريعة لتوسيع نطاقها وتضييق الخناق على الناس إلى حد مصادرة مبادئ الميثاق الدولي لحقوق الإنسان الذي ميّز المدنية الغربية عن بقية بلدان العالم.

ولعل السؤال الذي يخطر هنا ، هو كيف تجري هذه الحوادث المريعة في ظل أجواء السيطرة والتجسس القائمة على أحدث الوسائل والأساليب الأمنية والتكنولوجية ؟.

وهو قريب من السؤال ، الذي تردد عن كيفية اختراق الطائرات الحواجز الأمنية المشددة للدفاع الجوي الأمريكي دون أن يشعر بها أحد !.

•

متحف المستقبل الإلكتروني...

[ARC] هو الاسم المختصر [Arts Electronic Centre] لمتحف المستقبل [Musem of Future] في النمسا العليا [Upper Austria]. وتلصق به لفظة [Arts] فنون ، لدعم التجارب الجديدة [Enterprice] في التعامل مع الأجهزة الإلكترونية وتوظيف الكمبيوتر لاختراق مجالات حياتية جديدة. وقد أنشئ قبل ربع قرن ليكون أحد ثلاثة مراكز من نوعها في العالم إلى جانب شيكاغو (الولايات المتحدة الأميركية) وطوكيو (اليابان).

يتضمن المتحف نماذج لإمكانيات عملية متعددة ، منها : الرسم الإلكتروني باعتماد الحركة أو الذبذبة الصوتية ، حيث يرتسم نموذج مظلل أو نقاط أو

محيط دائرة أو دوائر جراء حركة ذراع أو حدوث صوت. وتنعكس شدة القرب في قتامة وكثافة النقاط المتجمعة. إضافة إلى إمكانية مشاهدة (مراقبة) جوية لأماكن معينة بوضع جهاز يلبس على الرأس يتضمن ناظور وحاكية، ويمكن للشخص ربط نفسه بحزام طائر، يشبه ما يلبسه متسلقو الجبال والأماكن المرتفعة، مربوط بنقطة في السقف ويمكن التحكم به بأزرار إلكترونية لتغيير الارتفاع والاتجاه والدوران والتقدم نحو الأمام أو التراجع، بما يتيح للشخص رؤية الأماكن (المنظورة). ومنه جهاز يستخدم الأشعة السينية لرصد أماكن الحركة والتجمعات لأكثر من شخصين في أي مكان في المدينة. وتظهر صورة كتلة قاتمة طولية أو مستعرضة على شاشة كبيرة، تبين حركتها ووقوفها. وهو من الأجهزة التي حصل عليها العراق في حرب الثمانينيات وكانت تستخدم في الخطوط الأمامية (ضابط الرصد) وكانت ترصد مساحة كيلو متر مربع أمام قاطع الوحدة، مبينة حجم القوة واتجاه حركتها.

ومن النماذج المعروضة، أجهزة مراقبة الطرق الخارجية في الولايات المتحدة الأميركية، عبر كاميرات مثبتة في أقمار صناعية موجهة. وقد عرض برنامج أمريكي لرصد الجريمة، ملاحظة البوليس في حجرة المراقبة اضطراب حركة سيارة على أحد الطرق الخارجية وانحرافها يمنة ويسرة، وبعد اشتباه المراقبين أوعزوا لأقرب مركز بوليس لمتابعة الموضوع، فانطلقت طائرة بوليس مزودة بأجهزة متقدمة استطاعت تصوير الأشخاص داخل السيارة وتسجيل الأحاديث الدائرة بينهم وكانا رجلاً وامرأة يتشاجران، وكانت المرأة حامل، وتطالبه بالتوقف. تدخلت الشرطة وأوقفت السيارة وتم معالجة الأمر.

•

التجسس العام

- مباني المنشآت والأسواق...

إن وجود كاميرات مراقبة في أماكن عامة أو خاصة، أمر قد يعرفه كثيرون، لكن ما لا يعرف، هو طبيعة الإمكانيات والخصائص الإلكترونية لهذه الأجهزة.

النموذج الأولي والذي صار تقليديًا هو ما يستخدم في الأسواق الكبيرة والمنشآت والفنادق والمتاحف العامة ويقوم (موظف) خاص بمراقبة شاشات كمبيوتر متعددة تنقل زوايا ومداخل وبوابات المبنى أو مجريات بعض الحجرات. وقد ترتبط بعضها بأقمار اتصالات صناعية شأن تلك المركّبة في قاعات المحكمة العراقية التي تتولى محاكمة أركان النظام العراقي السابق. ومن المسائل العادية اليوم وجود حجرة سيطرة (حراسة) إلكترونية في كثير من المرافق الرسمية والعامة والسجون ومراكز الشرطة التي تنقل ما تصوره الكاميرات المركّبة في أمكنة بعيدة.

- طرق المواصلات والتقاطعات المزدحمة...

بعض الأجهزة المركبة على طرق (المواصلات) الخارجية (أو الداخلية) لا تكتفي بتسجيل رقم العجلة ونوعها ولونها، وإنما تصوير الشخص خلف مقود القيادة، وبهذا يمكن التعرف إذا كان السائق هو مالك السيارة المثبتة معلوماته لدى البوليس أو شخص آخر.

أما السيطرة الإلكترونية داخل المدن، والجاري في مدن أمريكية وبلدان غربية عديدة، فلم يعد خافيًا. ومثله الأبنية والمنشآت المراقبة إلكترونيا، سواء حملت علامة تنبيه [CCTV] أو لم تحمل.

الكثير من محلات البيع والفنادق تستخدم أجهزة المراقبة والتصوير، والمؤسف استخدامها لغير أغراضها، سيما ما يتعلق بمشاهد العري ونشر أفلام (بورنو) مركبة، مما وضع بعض الأشخاص تحت طائلة القانون، مثل الممثلة الإيرانية

زهرة ابراهيم. ولا ننسى كثير من الأشرطة التي عرضها الإعلام الأمريكي في خضم حملته الدعائية ضدّ أسلحة العراق الذرية أو صور صوتية أو تلفزية لاجتماعات مزعومة لجهات معينة.

- مراقبة شوارع المدن وساحاتها الداخلية

يوجد نوعان من مستويات مراقبة المدن. الأول وهو ما سبق الإشارة إليه في متحف المستقبل الإلكتروني والذي يكشف مناطق الحركة والتكتلات البشرية (في الليل مثلاً) داخل المدن الكبيرة، ويمكن الإفادة منه في الأحياء التي تتكرر فيها أحداث العنف أو اختراق قرار حظر التجوال الليلي في ظروف معينة، أو مفاصل ازدحام السكان أوالسيارات.

وتعتمد لذلك أجهزة خاصة مركبة في أبراج التلفزة العالية أو النقل الفضائي أو الأقمار الصناعية. وتمتلك كثير من الدول (المتقدمة) أو الساعية في ركابها، كالهند وباكستان أقمار صناعية لأغراض التجسس أو الاتصالات الفضائية.

أما الثاني، فهو يعتمد أجهزة ذات قدرة تشخيصية دقيقة لنقل الصورة والصوت تركّب في شوارع وأحياء داخل المدينة، مربوطة بأجهزة كمبيوتر ضخمة وشاشات سكرين متعددة داخل حجرات السيطرة والمراقبة في دائرة الشرطة المعنية.

وهي شائعة في كثير من مدن العالم الكبيرة، والتي يشار لبعضها في المحلات العامة [CCTV Control Area]. وقد أشار رئيس الوزراء البريطاني في معرض تعليقه على تردي سلوك التلاميذ والطلبة وانتشار كتابات معيبة على الجدران، في صيف العام (٢٠٠٦)، إلى نصب كاميرات مراقبة في بعض الأماكن العامة.

وقد نشرت الصحف مؤخرًا تحت عنوان [MICROPHONES TO SPY ON STREET CHAT] خبرًا مفاده أن أكثر من ثلاثمائة كاميرا إنصات يتم

تركيبها في هولندا. تتضمن أجهزة إنصات عالية يجري تركيبها مع الكاميرات في الشوارع ويمكنها التقاط أصوات على مائة يارد. والغاية منها السيطرة على حالات العنف قبل وقوعها. ويعلق مسؤول في الداخلية البريطانية : وأنت تمضي في الشارع تتوقع أن بإمكانك عمل مناظرة خاصة. إذا لم تستطع أن تضمن ذلك، وهنا يمكن أن يكون شخص يتحدث من الصنف الذي ينبغي حماية المجتمع منه. وهذا يعني إحكام السيطرة على السور.

يذكر أن كاميرات المراقبة الحالية تمسك ما يزيد على ثلاثمائة حالة يوميًا في لندن.

- شبكات الحماية الإلكترونية للمدن...

وأنت تقترب بالسيارة من حدود بعض المدن الغربية الكبيرة أو مراكز المقاطعات، يمر الشارع داخل بوابات عالية أو أقواس تتوزعها أجهزة ضوئية وإشارات تحذير وتنبيه حول السرعة وغيرها. ولكنها في حقيقة الأمر تتضمن رادارات وكاميرات تشخيصية تتولى فحص وتمييز وتسجيل كل بيانات العجلات المتحركة خلال القوس ، وتنتقل المعلومات والبيانات المتعلقة بالعجلات والسائق لمراكز سيطرة الطرق الخارجية.

إن الأجهزة المتضمنة في أقواس المرور الخارجية لا تنحصر في رصد وفحص وإحصاء موديلات السيارات وصلاحيتها ، وإنما تتعداها لأمن الأشخاص والإجراءات الأمنية الخاصة بتجارة وتعاطي المحظورات من أسلحة ومخدرات وسجائر ومشروبات أو بضائع غير مرخصة وما أشبه.

لقد تمَّ ترجمة غريزة الكلب البوليسي على التحسس إلى مجسات إلكترونية عن بعد معين ، بحيث تلتقط إشارات محددة سرعان ما يجري تثبيت كل بيانات وصور السيارة المشتبه بها وملاحقتها فوريا.

ويتمتع البوليس الإنجليزي بإمكانيات فائقة الدقة والمرونة في رصد وملاحقة

المطلوبين والمشتبه بمجر خروجهم إلى الشارع. وتجري ملاحقة الشخص أو العجلة حتى في الأزقة الضيقة والمتفرعة داخليًا ، وذلك متابعة الحافر بالحافر ، بينما تكون دوريات أخرى تتقدم إليه من أكثر من اتجاه ، ودلك بفضل جهاز دليل المرور من نوعية خاصة تتبع الصورة أو الشاخص [figure] مع أدق التواصيف. ويتم إلقاء القبض على الشخص حتى لو كان داخل مجموعة أو زحام وبطريقة تثير الدهشة. ويتساوى في ذلك الهدف ، شخص أو سيارة أو كيس نفايات.

ورغم الازعاج والاضطراب الذي تتسبب فيه حركة عجلات البوليس من جانب السرعة الفائقة وأصوات التنبيه لإخلاء الشارع والدي قد يتضمن رتلاً من العجلات والدراجات البخارية ، لكن المهارة الأمنية للبوليس البريطاني يسجل معجزات حقيقية مند أحداث السابع من يوليو ، ويتمتع بصلاحيات وامتيازات يستحقها بالتأكيد.

في مكان تجاري وسط سوق شعبي مزدحم تحيط به المقاهي والمطاعم ومحلات التبضع الشرقية والأسواق الإنجليزية الكبيرة ، تمَّ القاء كيس بلاستك في حاوية نفايات موضعه أمام أحد المقاهي الشرقية. خلال بضع دقائق زعقت أصوات سيارات البوليس وتم اغلاق المنطقة ومحاصرة الموضع. ترجل بضعة أشخاص يرتدون بدلات ذات تجهيزات إلكترونية خاصة ، من حاوية النفايات وسط دهشة المارة وزبائن المقهى ، وجرى انتشال الكيس ، وبعد فحص محتوياته تبين أنه يتضمن مسدسًا من مسدسات الألعاب ، لا يمكن تمييزه عن المسدس الحقيقي.

لكن الأمر لم ينته عند هذا الأمر.

لقد جرى استخدام مسدس الألعاب هذا في جريمة مسجلة لدى البوليس ، وبدأت حملة تحري سريعة حول الشخص الذي ألقى بالكيس ، وباب العمارة الذي دخل فيه بعد التخلص من الكيس ، وجرى ضبطه واعتقاله فورًا.

لا أحد يتصور أن كيس نفاية مغلق يحظى بالاهتمام والرصد من الرقابة الوقائية ذات يوم. وظيفة هذه الشبكات بالدرجة الأساس حماية فضاء المدينة من أي محاولة اعتداء خارجي أو داخلي بالأسلحة التقليدية أو التكنولوجية الحديثة، ناهيك عن تعقب المطلوبين أمنيًا أو جنائيًا في قضايا محلية أو دولية.

وتستخدم لأجل ذلك مجسات إلكترونية ذات قدرات تحسس دقيقة لمختلف التغيرات والتوترات من درجات تهديد محددة، يتم تركيبها في أقمار صناعية موجهة أو أبنية عالية تغطي البقعة الجغرافية للمدينة.

وهي بذلك تشترك مع أجهزة الأرصاد الجوية واستقبال الإيعازات الخاصة بحركة الطيران بوظائف جديدة أكثر تعقيدًا وتنوعًا. وتأتي هذه الإجراءات بعد أحداث العنف التي شهدتها مدن أميركية أو هجمات الغاز في عاصمة اليابان.

إن البرنامج الذي وقَّع عليه الرئيس الأميركي والممثل الأسبق رونالد ريغن في الثمانينيات ، هو برنامج دفاعي حمل اسم (حرب النجوم) [STARS WAR] وهو الاسم الذي حملته ودارت حوله كثير من أفلام هوليود للصغار وللكبار ، يبدو قابلاً للتصديق عندما يتأمل المرء الخيال (العلمي) البعيد لإجراءات الحماية والأمن الغربية والذرائع والإشاعات التي يتم تسريبها بين الحين والآخر ، لتبرير انتهاكاتهم الحياة البشرية بعد انتهاكهم قواعد حماية البيئة.

•

التجسس الشخصي...

- التجسس الإداري الحكومي

البيروقراط كلمة تعني (طاقم المكاتب)=الجهاز الإداري. لكن دلالتها اليوم تشير إلى الروتين وانتشار الأمراض الإدارية في العمل والتعامل مع الأشخاص.

وتتخذ (الأوراق) مرموزًا رئيسًا في تمثيل الإدارة والموظف. لكن تراكم هذه

الأوراق بشكل يتجاوز الحاجة وحدودها والمنطق العام هو ما يسيء إلى الشخص وعملية الإدارة على السواء.

وفي الإرث الروماني كان الموظف عند الحكومة يدعى : أيديت (idiot)، وهي اليوم تشير إلى مرض عقلي (idiocy) وتستخدم شتيمة عند الألمان.

تتوفر كل شعبة إدارية اليوم على كم هائل من الاستمارات والنماذج لكل حالة وغاية وخصيصة. ولغرض معين قد يتعين على الشخص إملاء أكثر من استمارة وملف. وليست المشكلة في الاستمارة، التي تعتبر تسهيلاً واختزالاً لكثير من الجهد والكلام، وأقرب للدقة عند إملائها الصحيح. المشكلة في تضمين الاستمارة أسئلة واستفسارات شخصية لا تتعلق بطبيعة المعاملة وكثير من هذه الأسئلة، تمسّ الحقوق والحريات والمعتقدات الخاصة، أو بيانات أولية عن حياته وعنوانه وعمله سابقًا ونسبته الأثنية [ethnic race]، مما يدخل في باب المعلومات الأمنية، ناهيك عن طلب أرقام هواتفه في البيت والعمل والشخصي وعنوانه الإلكتروني، وأحيانًا أسماء وهواتف أصدقائه المقربين.

وتتكرر هذه المعلومات مع كل معاملة ودائرة ومراجعة. وليس على المواطن غير الرضوخ والتوقيع على إقرار بصحة المعلومات وقبول مقاضاته وحرمانه من الحقوق عند مخالفتها الحقيقة.

وقد استمرأت الشركات الخاصة والمؤسسات الأهلية تقليد استمارات الحكومة في معاملة المراجعين، ولأتفه الأسباب، ناهيك عن تضييع الوقت والجهد واختبار مدى طواعية الشخص للرضوخ والتحمل والاستفزاز.

وكثير من البسطاء يقعون في مغبة تقديم معلومات لا ضرورة لها، ويمكن أن تستخدم ضدّهم من قبل جهات لم يتصلوا بها. وإذا كانت دوائر الحكومة تتمتع بضمانات حماية معينة، فالمؤسسات الأهلية تتعامل في أفق مفتوح، مع سلسلة شركات ومؤسسات تتجاوز حدود الدولة إلى مؤسسات أجنبية.

الملاحظة الأكثر أهمية هنا، هي الصلاحيات التي تمنحها الدولة (بحكم القانون)

لنفسها لمراقبة نشاط الفرد الاقتصادي وعملياته البنكية وملفاته الأمنية أو الصحية.

- الداخلية وبنك الجينات...

لم تعد المعلومات والاستمارات الأمنية وتقارير المخابرات والشرطة المحلية والدولية تشبع نهم أو جوع السلطات الأمنية في التجسس على المواطن والاجتهاد في صنع حلقات خناقات جديدة تلتف حول رقبته وليس حول رجليه ويديه، وذلك هو بنك الجينات [Bank of Gens]. فبحسب مستودعات هذا البنك، يمكن الاستدلال إلى كشف أي جريمة خلال ساعات قليلة. أن أي قطعة ثياب أو شعرة أو قطرة دم أو إفراز سائل أو أداة مستخدمة في جريمة تكشف هوية جينات الفرد القائم بها. وبالتالي، فوجود ملف جيني لكل شخص لدى البوليس يساعد في الاستدلال عليه.

ويلقى هذا الأمر معارضة هو الاخر من ناشطي حقوق الإنسان، ويحذرون من عواقب التشخيص أو الاستخدام الخاطئ لهذه المعلومات. سيما بعد اتهام سلطات الداخلية شخص بمسؤولية جرم معين، ثبت أنه لم يكن موجودًا في البلاد خلال وقوع الجرم.

ومع ذلك تسعى الدول لاستكمال ملفات بنوكها الجينية لأكبر عدد من مواطنيها. وهنا يظهر أثر التعاون الحميم بين مؤسسات الصحة والداخلية من وراء قفا المواطن. وإذا اعترض، فمن يسمعه ؟!.

- التجسس الطبي...

كلما زاد اعتماد الإلكترونيات والتقنيات الحديثة في المعالجة والحفظ والاتصال زادت نسبة التجسس واحتمالات سوء استخدام المعلومات ضدّ الشخص.

تبدأ العملية كما أشار إليها كونديرا منذ أسابيع الحمل الأولى، حيث تلزم المرأة الحامل بمراجعة دورية للطبيب الاختصاص، تستمر ما بعد الولادة، إلى سن

الثلاثة سنوات في المرحلة الأولى ، وحتى سن دخول المدرسة في المرحلة الثانية. إن المعلومات التي يخزنها الكمبيوتر (الطبي) في ملفة الشخص لا حدود لها ، ولا توصيف لأبعادها ما يختص بأجهزة الجسم المختلفة ووظائفها ، وخصائص الجينات الوراثية التي هي مستودع تاريخه السلالي وتصنيفه النفسي والعقلي والجسدي.

تبقى هذه المعلومات في ذاكرة الكمبيوتر والمتعاملين معها ، ولا يعرف عنها الشخص أو عائلته شيئًا ، ولا يخامر أحدًا الشكّ ، في السؤال عنها أو الإطلاع على تفاصيلها ، إن لم يكن من أهل الاختصاص ، وتقوده إليها الصدفة.

مثل هذه الصدفة يختلقها الدكتور علي القاسمي في قصة (أخضر العينين) والتي تدور حول علاقة بين هيام وكمال الفائق الجمال ، بالمقارنة بوالديه الدميمين لدى تعرفها عليهم ، فيخامرها الشك والفضول لتقصي الأمر.

[إذن ، ستلعب هيام دور المفتش السرّي شارلوك هولمز ، وستبحث عن مفاتيح السرّ. ستضع يدها عليه. ولا بدّ أن تبدأ من حيث يجب أن تبدأ. من المستشفى الذي ولد فيه كمال. ستطلع على تفاصيل ولادته / (ص٤٧)(•).

وبينما تجلس أمام حاسوبها وهي تتفحص شبكة المعلومات الدولية بحثا عن عناوين مستشفيات الولادة في مدينة إيستلانسنغ في ولاية مشيغان حيث درس أبوه ، تذكرت أن إحدى صديقات الطفولة تقيم هناك في مشيغان ، وقد تستطيع مساعدتها إن هي طلبت منها ذلك / (ص٤٨).

وصلها الجواب وراحت عيناها تكرع الرسالة كرعًا وتقرأ : " يمثل كمالك هذا أوج معطيات تكنولوجيا الجينات والهندسة الوراثية في أمريكا قبل ربع قرن. ركّبه الباحثون في مستشفى مشيغان التجريبي ، استجابة لقائمة طويلة من المتطلبات والأمنيات التي طرحها والده على مجموعة الباحثين ، وتشتمل على

• د. علي القاسمي ـ (صمت البحر) ـ مجموعة قصصية ـ دار الثقافة ـ الدار البيضاء.

جميع المواصفات الجسمية والنفسية المثالية وطبعًا لقاء مكافأة مجزية" (ص٤٩).

كم من الناس يخطر لهم وتتاح لهم مراجعة ملفات أزواجهم الجينية قبل الولادة كما فعلت هيام؟ وهل ذلك ممكن بهذه السهولة؟. لا بدّ أن قوانين خاصة بهذا المجال سوف تحدد ذلك.

ويستمر الكاتب إلى ذروة المكاشفة. [لا بدّ أن الباحثين شخّصوا كل المورّثات الطبيعية للغيرة والرضى، والحزن والفرح، والكره والحبّ، ففرزوها ونزعوها من كمال. ترى هل عاد بشرًا سويًا وهو محروم من جميع المشاعر البشرية التي تجعل من الإنسان إنسانا، أم أنه مجرد إنسان آلي يتحرك وفق برنامج منطقيّ عقلانيّ ؟... هل سأتزوج إنسانا يشاركني مشاعري أم كائنًا مركّبًا تركيبًا اصطناعيًا في المختبر؟/ (ص٥٠)].

وغير الولادة، فإن كثيرًا من المعالجات والتداخلات الجراحية تجرى اليوم مباشرة أو غير مباشرة بالأجهزة الإلكترونية واستخدام تقنيات الكمبيوتر لحفظ المعلومات وتسفيرها. وبالتالي فإن السجل الصحي والمرضي للشخص موجود في ذاكرة الكمبيوتر الموصول بشبكة الإنترنت العالمية، ويستطيع العاملون في الجهاز الصحي والمتوفرون على كلمة السرّ [pass word] أو الكود [code]، وعندها لا يصعب عليهم شيء.

وإذا كان قراصنة الكمبيوتر يخترقون أجهزة البنوك والسلاح اليوم، فمن يمنعهم من اختراق أنظمة الصحة والتلاعب والمتاجرة بها.

بالمقابل، تتداول بعض دول الاتحاد الأوربي فكرة [medical card] الكارت الصحي أو البطاقة الإلكترونية لكل شخص يتضمن عليه كافة ملفه وبياناته الصحية وتاريخه المرضي، لتلافي فترة الانتظار ريثما يتم ارسال ملفه الصحي من مستشفاه الأصلي عند تعرضه لحادث طارئ، ويقلل من الروتين والعمل الإداري. ويشبه هذا الكارت البطاقة الشخصية أو البطاقة الخاصة بالبنك لسحب

النقد والإطلاع على حسابه الشخصي. لكنه يواجه معارضة لسهولة سوء استخدامه في هذا الحال.

•

- العلم والمصداقية الأخلاقية...

انحراف وظيفة العلم من خدمة الإنسان إلى الأضرار والتنكيل به والاعتداء على حقوقه أحد المبادئ التي انطلق منها تيار معاداة التكنولوجيا والذي تبلور في تيار مناهضة العولمة. وقد مرّ هذا الانحراف بثلاثة مراحل أو أنماط :

١. عبودية اقتصادية (الرأسمالية الإمبريالية).
٢. عبودية تكنولوجية وإلكترونية (واستخدامها لأغراض تضرّ بالإنسان وكيانه).
٣. انتهاك الحرية والحقوق الشخصية (عبر تضمين الملفات الرسمية معلومات لا ترتبط بغاية الاستمارة– ولأغراض أمنية استخباراتية).

لقد بذلت الجماعات المناهضة جهودًا جبارة في وجه عجلة الإمبريالية والتكنولوجيا الرأسمالية، وباستخدام الإعلام والأدوات السلمية منذ السبعينيات، في الدفاع عن البيئة وفضح التجارب النووية والأسلحة الممنوعة، وصولاً إلى مناهضة الأغذية الصناعية [gentechnic food] إلى اجتماعات قمة الثمانية. اضطرت معه الدول المضيفة إلى التكتم على مواعيد الاجتماع أو أماكنها أو منع الناشطين من دخول البلاد واعتقال أعداد منهم، أو استخدام قوات أمنية تزيد على أعداد الناشطين عشرات المرات. لكنها في نفس الوقت عمدت إلى تشويه عمل أولئك الناشطين ، واتهامهم بالقيام بأعمال عنف ، والإضرار بالممتلكات العامة ، لمجرد تنظيف الطريق من المعارضين لسياساتها وممارساتها الشوفينية التي وضعت المجتمع البشري والمدنية الغربية على محك امتحان أليم وطريق اللا رجعة.

إن دول العالم مجتمعة لا تعرف ماذا تعمل لوقف تدهور البيئة والغلاف الجوي وكيفية حماية حدودها من العنف الدولي ووقف انتشاره وتماديه في الشرق الأوسط، ومصير القرية العالمية الإلكترونية المخترقة من كل الجوانب.

•

إن جُملة منظومة الأُطر "التجسسية" المحيطة بالفرد المعاصر في المدنية الغربية اليوم، بالإضافة إلى بقية المؤسسات التي تقتسم قطاعات الحياة والنشاط الاقتصادي والثقافي العام، تجعل من الشخص [دمية] صغيرة معلقة في فضاء، بمجموعة متعددة من الخيوط والمجسّات من كافة جهاته.

قد يعتقد البعض أن هذه الأطراف لا تعيق حركته أو أنها تدعمه وتحميه، لكن الأثر النفسي لمجرد شعور الشخص بأنه تحت المراقبة، يكفي لتصعيد وتيرة التوتر لديه. وتأكيد مسألة أنه تحت الاشتباه المستمر حتى تثبت براءته.

في القوانين التقليدية لم يكن ممكنًا التعرض للفرد بكلمة أو فعل بدون إذن رسمي خاص ونص قانوني. أما اليوم، فثمة إذن عام، ويوميا تحصل الشرطة على صلاحيات متزايدة في التعرض للمواطنين، بذريعة الأمن العام.

هذه الصلاحيات المتزايدة لأجهزة الأمن والجيش هي في نفس الوقت اختزال لحقوق المواطن وانتقاص حريته الفردية وتحديد نشاطه ووضع وجوده وكيانه في خانة الاشتباه والمهانة، بينما يحمّل بالمقابل مسؤولية كل ما يجري، بشكل مباشر أو غير مباشر.

وأخيرًا... ألا تضع الجرائم والأحداث التي وقعت حتى اليوم، الممارسات والإجراءات الأمنية المتواصلة في محل تساؤل وارتياب، وتفرغ مبرراتها المزعومة من أي مصداقية؟.

فرنكشتاين المسكين

الدعاية الأميركية المضادة لنظام صدام حسين لقيت استجابة غير متوقعة من قبل بعض العراقيين، وبشكل فوري يفوق التصور، وهو أمر لم يحدث في ألمانيا رغم مرور أكثر من نصف قرن على الدعاية المضادة لهتلر والمستمرة في الإعلام الغربي.

خلال زمن يسير أصدرت المطابع الغربية مئات الكتب عن صدام ونظامه والعراق، ولم يكن يمر يوم لا يتردد فيه اسم الرئيس العراقي الأسبق في وسائل الإعلام. ولم يتأخر العراقيون في الاستعراض والمشاركة ضمن الدعاية الغربية المضادة لبلادهم، مانحين أنفسهم صورة الضحية. فيما كان تركيز الإعلام الغربي على الكرد باعتبارهم الضحية الكبرى لنظام صدام، في مقابل استخدام اليهود في حالة هتلر.

الدعاية الأميركية ضد صدام حسين كانت صورة طبق الأصل من دعايتها ضد هتلر، مع فارق واحد؛ أن دعايتها ضد هتلر جاءت بعد موته ونهاية حُكمه، بينما كانت دعايتها ضد صدام خلال حياته.

وحتى اليوم تعتبر مواد الحرب الإعلامية الأميركية ضد أعدائها حقائق علمية وسياسية فوق مستوى الشك أو المناقشة على الصعيد الإعلامي أو الأكاديمي أو السياسي، وتلاحق العقوبات الجائرة كل من يتعرض لها من قريب أو بعيد.

فرانكشتاين- مصطلح أميركي ذي صيغة لغوية جيرمانية، يتكون من مقطعين: فرانك، كلمة تعود على الفرنسي / الفرنجي؛ وشتاين، لفظة ألمانية بمعنى (حجر)، وتستخدم أداة نسبة تلحق بها أسماء الأمكنة والإعلام والأشخاص مثل بورغرشتاين وآنشتاين. وتقابلها بالإنجليزية كلمة (ستون) بنفس المعنى والنسبة في الأسماء مثل: ونستون، كنغستون، برنغستون. والاستخدام الأشهر لها منذ

أيام الرومان هو : مايل ستون [milestone] المستخدمة في تحديد المواقع الجغرافية وحساب الطرق، وتعادل نقطة الصفر في اللغة العربية.

لماذا (فرانكشتاين) وليس (انغلستون) مثلا؟...

لابد من هذا السؤال للوقوف على المرجعيات الثقافية التاريخية في اختيار ونحت المصطلحات، كما أن المصطلح عمومًا لا يولد مرة واحدة، قبل أن يمر بمراحل من الاستعارة والكناية والاستدلال الشعبي قبل أن يأخذ صياغة رسمية ثابتة تحل محل سواها.

والمصطلح حسب تصنيفه في قاموس الذم، استند إلى مدلول تراثي قديم يعود في أصله لتلك العلاقة أو النظرة السيئة للأميركي نحو الفرنسي تحديدًا ، والعنصر الأوربي الجيرماني عامة.وقد كان الفرنسيون في صدارة الأوربيين في استيطان العالم الجديد الشمالي عقب استئثار الأسبان والبرتغاليين بأميركا الجنوبية. لكن فكرة الإصلاح الإنجيليكاني انطلقت من إنجلترا ، مستخدمة التأويل التوراتي لاعتبار الأرض الجديدة هي كنعان – أرض الموعد ، التي حولت موجات البحث عن الثروة إلى حملات صليبية لإعادة استيطان واحتلال الأرض ومنحها مسميات أرض كنعان ورموزها الدينية. فالحروب الأهلية الأمريكية كانت في أصلها بين المكونات الأوربية المتعددة للمستوطنين والقراصنة التي أخذت صور تحالفات شمالية جنوبية، شرقية غربية. وتقسيم القارة الشمالية إلى ثلاث دول شمالية وجنوبية وبينها الولايات المتحدة الإنجليزية هي من آثار الصراع القديم على الأرض الجديدة. بل أن الآثار القديمة ما زالت تطبع العلاقات الأميركية مع كل من فرنسا وألمانيا، بالمقارنة مع العلاقات الودية المتماهية في بعضها بينها وبين إنجلترا.

أول استخدام أدبي للكلمة جاء في رواية ماري شيللي التي حملت عنوان (فرانكشتاين) عام (١٩١٨م) واستعيرت عام (١٩١٠م) في فيلم من إنتاج ستوديوهت أديسن ، ومنذئذ تعددت استعاراتها واستخداماتها في مجال الأدب

والفن والعلوم. ومنها رواية الدوس هكسلي (عالم جديد آمن) (١٩٣٢م) ورواية جورج أورويل المسماة (١٩٤٨) ، اللذين استخدما الشخصية في مجل النقد السياسي ، وتحولت لدى الأخير إلى الدكتور فرانكشتاين. وفي باب الدلالة عن كل عمل شرير يسجل ضد مجهول ، أو لا يجرؤ الناس على تسمية من وراءه.

والاسم الكامل للشخصية التي يتعدد التأويل حول مرجعيتها التاريخية هو (فيكتور فرانكشتاين) كناية عن شبح غير منظور ، يتحكم في الجانب السيء من حركة الواقع.

مصطلح فرانكشتاين يقابل مصطلح "علي بابا" أو "حسن الأسود" في القرون الوسطى في وصف الغرب للعثمانيين مثلاً. وما تزال ثمة ألفاظ رمزية نابية توصف بها كل جماعة أو شعب غير أوربي الأصول.

يبقى أن شيوع أو إشاعة فرنكشتاين عالميًا يأتي ضمن تيار العولمة ومنح المصطلحات والرموز الأميركية صفة عالمية موحدة ، مثل الثياب الجلدية والكابوي والوجبات السريعة كالمكدونالد والبورغر والهوت دوغ وغيرها من منتجات السينما والسياسة والحياة اليومية الأمريكية .

وليس من الغريب أن يكون العراق المحتل أول حاضنة لمنتجات السوق والسلاح والثقافة الأمريكية ، ومن بينها مصطلح الإرهاب وفرنكشتاين. وليس من الغريب أيضًا ان يكون نوري المالكي – رئيس وزراء حكومة الاحتلال [٢٠٠٦– ٢٠١٤م] – هو من يصدر "قانون "٤ إرهاب لملاحقة وتصفية كل من يناوئ الاحتلال وزبانيته ، فيما تسجل كل أعمال العنف والجريمة والتصفيات الفردية والجماعية ضد مجهول عام اسمه الحركي (فرنكشتاين).

هذا الشبح أو المجهول السياسي في الديمقراطية الغربية ليس سوى السلطة السياسية ومن يحبك خيوطها من وراء الكواليس.

•

- تطبيق عراقي...

الولايات المتحدة التي احتلت العراق عام (٢٠٠٣م) لم تأت بمفردها، وإنما نقلت بمجيئها تنظيمات القاعدة من أفغانستان إلى العراق ومن تورا بورا إلى الفلوجة. وتم تسجيل كل أعمال المقاومة ضد الاحتلال والعنف المحلي باسم (القاعدة) التي كان لها وجود متواضع على الأرض، ولكنه وجود خيالي تبالغ فيه وسائل الإعلام.

هدف الولايات المتحدة من وراء الاستخدام الإعلامي لاسم القاعدة كان مزدوجًا: أولهما، دفع العراقيين للترحيب بالاحتلال الأميركي لبلادهم، والثاني أن للقاعدة وجود رئيسي في العراق، يدعم مزاعمها السابقة عقب انفجارات نيويورك حول علاقة القاعدة بنظام صدام.

وبحسب الروح الأسطورية لدلالة فرانكشتاين، فقد صورت وسائل الإعلام رموز القاعدة تصويرًا أسطوريا بدءًا من شخصية بن لادن نفسه إلى أبي مصعب الزرقاوي وأبي أيوب المصري وغيرهم، قبل أن تتبخر تلك الصور والرموز وتظهر شخصية أبي بكر البغدادي عقب الانسحاب الأمريكي الرسمي من العراق وتجري نسبة أعمال العنف والمقاومة والمعارضة إلى تنظيم داعش الذي وصفه المؤرخون الغربيون باعتباره الجيل الثالث من تنظيم القاعدة.

ولم ينقطع الإعلام العراقي الرسمي عن ترديد اسم القاعدة ونسبة كل الشرور المصاحبة للاحتلال والفساد السياسي إليها.

في السياسة المحلية كان ثمة شبح آخر يتهدد مناماتهم ويقظتهم، ليس هو شبح القاعدة الإعلامي الذي يعرفون حقيقته أو مغزاه الرسمي. فقد تعارف المسؤولون المحليون في كل موضوع يتعلق بمطالب الناس للإصلاح والخدمات البلدية لتوجيه أصابع الاتهام للنظام السابق وحجم الخراب الموروث، مع ترديد وترويج المطالبة بتطبيق قانون اجتثاث البعث كضرورة لعودة الأمن

والاستقرار والتنمية. وكان نوري المالكي أكثر مسؤول رسمي اعتاد ترديد اتهاماته لحزب البعث في معظم خطاباته، وسيما للرد على المظاهرات الشعبية التي عمَّت بغداد والمحافظات العراقية عام (٢٠١١م) متهما إياها بوقوف البعث وراءها، ومبرِّرًا لنفسه بذلك تسليط مليشياته الأمنية الرسمية وغير الرسمية لمنعها وتصفية نشطائها.

وبينما تحولت المظاهرات في المحافظات الغربية الست إلى اعتصام مفتوح، أطلق العنان لاستخدام أنواع البطش العسكري والبوليسي والسياسي، واصفًا المعتصمين ومطالبهم الوطنية بمؤامرة بعثية، وبالشكل الذي أنتج ما دعي لاحقًا بأزمة الأنبار ومجازر الفلوجة والحويجة وظهور تنظيم داعش في يونيو (٢٠١٤م) وسيطرتها على أربع محافظات شمال وغرب العراق وطرد قوات الحكومة، مما شكّل سببًا مباشرًا لسقوطه وتحميله مسؤولية الأحداث.

حزب البعث في تاريخه وفكره ونشأته كان حزبًا عربيًا وطنيًا، عُرِف بسياساته التنموية ونهجه الواضح والصارم في التصدي لقوى الاستعمار والصهيونية والرجعية المحلية. وقد أنجز خلال حُكمه نهضة عمرانية وثقافية وتنمية اجتماعية اقتصادية يشهد لها المعنيون. كما بنى أحد الجيوش العقائدية القوية في المنطقة والعالم، مما سوغ استهدافه من قبل القوى الإمبريالية العالمية.

ولكنه في نفس الوقت، ومثل كل الأنظمة الأخرى، لم يكن معصومًا من الأخطاء على الجانب الآخر، وفي مواجهة التحديات المحلية والإقليمية المناوئة لخطه السياسي وقوته المهددة لمستقبلها. تلك القوى غير البعيدة عن ممالأة الأهواء الخارجية وكما أعلنت الأيام حقيقتها اليوم.

هذه الصورة الموجزة بكل تفاصيلها، هي موضع حرج وأرق وتحدي للطغمة السياسية التي جاءت مع الاحتلال، سواء في نشأتها وتاريخها أو في أدائها وولاءاتها الخارجية المفضوحة. فحاولت عبر تشويه النظام السابق تبرير نفسها وإسباغ نوع من الشرعية على نفسها وانسياقها مع العدو.

عمدت كل سياسة الاحتلال والحكومة المحلية لاستخدام مسميات القاعدة والنظام البعثي للتغطية على مشروعها التخريبي واللا إنساني في العراق والمنطقة ، مطلقة العنان لنفسها لتحقيق الاستغلال الأمثل لفرصتها التاريخية النادرة، بشكل غيب عنها وعي الجماهير للعبة، وعدم خنوعها الأبدي.

ففي الحادي والثلاثين من يوليو (٢٠١٥م) سقطت عباءة فرانكشتاين وانكشفت عورة الاحتلال وزبانيته وعادت الجماهير العراقية لتأكيد مطالبها الوطنية بالإصلاح ومكافحة الفساد والمفسدين.

وفي حين لم يتورع ساسة الاحتلال في تسمية رموز القاعدة والنظام السابق في باب الاتهام والتجريم ، صدرت تعليمات رسمية ودينية مشددة بعدم تطرق المتظاهرين للمسميات السياسية والدينية ، وحصر المطالب والشعارات في الأُطر السلمية العامة.

فالسلطة السياسية وباسم الديمقراطية والعمل المدني ، تستمر في الدفاع عن فلسفة فرنكشتاين وعدم إسقاطه سياسيًا.

وإذا كانت الثقافة الغربية على مدى يقارب القرن حتى الآن ، قد حافظت على معصومية الشبح الشرير ، فإن نسخته العراقية والعربية في طريقها لحفظ التقليد الغربي وتعريبه وتعريقه لخدمة سلطة الشر الديمقراطية ، وإبقاء الجماهير في حلبة الدوران حوله.

الوجودية والعولمة

- محاولة في استقراء الواقع الإنساني -

يمكن توصيف التاريخ البشري في ثلاثة مراحل أو عناوين رئيسة :

- صراع مع الطبيعة
- صراع مع الحضارة
- صراع مع الذات !

•

الإنسان الطفل والطبيعة الأم...

فتح الإنسان عينيه، فوجد نفسه في الطبيعة / على تماس مباشر وغير مباشر معها ومع تأثيراتها.

كأي طفل؛ يكتشف، يتعلم ويتلذذ... ومثل الطفل تنقصه التجربة والوعي، ولا يكاد يميز / أو يعرف ما هو جيد وما هو سيء. لم تكن الذاكرة قد تكونت بعد، ولا المدارك... وكانت المشاعر في غضاضتها الأولى، لم تنضج ولم تتولد العاطفة.

يختلف العلماء والفلاسفة والمؤرخون في تقييم الكائن البشري الأول وتوصيفه وتفسير كُنهه وأصله ومآله عمومًا. وعلى صعيد أدقّ، الاختلاف في تمييزه عن الكائنات الحياتية الأخرى ومنها الأقرب شبهًا إليه، بدءًا من الفقاريات حتى الهومو سابينز (Homo- Sapiens).

هل يكمن امتيازه في الشكل، أو العقل، في قواه الظاهرة (الجسدية)، أو قدراته العقلية، في خصائصه النفسية أو لغز الروح؟.

الإجابة هنا تختلف، باختلاف المنظور المستخدم في الرؤية، وطبقًا لمرجعيات

obeikan.com

القراءة، مع الأخذ بنظر الاعتبار، أن كل مرحلة من المراحل، استتبعت مفهومها الخاص، ومن المبالغة بمكان، افتراض، أو تصور حريتنا المطلقة في إمكانية النفاذ للمفاهيم الفكرية والاجتماعية والنفسية في علاقتنا مع (الآخر).

في هذه المرحلة تراكمت التجربة وتشكل الوعي؛ الذاكرة والمعارف، المدارك والأحاسيس وبدايات العواطف. وبدأ الإنسان حثيثًا في توظيف تجاربه ومداركه ومعارفه لتسخير مقدرات الطبيعة للاستفادة منها في تأمين احتياجاته اليومية، الفردية والاجتماعية.

•

من الطبيعة إلى المادة... الخط أو المثال

لم يعد الإنسان عبدًا مطلق التبعية لمقدرات الطبيعة، وفي هذا امتياز عن عالم الحيوان، وكلما زاد استقلاله عن عوامل الطبيعة وتأثيراتها ابتعد في مضمار الحضارة، وامتاز الأفراد والجماعات البشرية عن بعضهم البعض بذلك.

لكن السؤال هنا:

إلى أي حدّ استطاع الإنسان تقليد الطبيعة وتسخيرها لاحتياجاته؟.

إن الطبيعة في سماتها وخصائصها هي صورة للكمال والمثال، فهل كان الكمال سمة أو خاصة لعمل الإنسان ونشاطاته الأرضية؟. ان الطبيعة بجريانها الدوري المنتظم، تنتج تراكمًا معرفيًا يساعد في تقدير تبعاتها والتحسب لها في جانب الطمأنينة والفائدة. ولكن النشاط الإنساني يفتقد سنة الجريان الدوري وفق حسابات رياضية فيزيائية وزمانية دقيقة، تؤهل للتحسب لما يطرأ عنها.

في هذه المرحلة ترتبت آثار سلبية ثانوية أو رئيسة أحيانًا، تبع النشاط البشري وتحول الصراع من اتحاد البشر في مواجهة عوامل الطبيعة، إلى تمزق البشر في فئات متصارعة ضد بعضها.

ليس من باب الصراع على القوت والاستقرار ، وإنما عمل كل جماعة لتفادي أخطاء الجماعة الأخرى، وتقليل المضار الملحقة بها.

ومن هنا ظهرت عوامل متعددة تحكمت في إنتاج التمايز الحضاري والاجتماعي والاقتصادي بين الجماعات البشرية أولاً ، وبين الأفراد داخل الجماعة الواحدة نفسها (التفاوت الطبقي واختلاف المصالح).

•

فكرة الشرّ والفضيلة

الحضارة باعتبارها منتجًا بشريًا تتشكل من صنفين من الإنتاج : المادي والعقلي. وهذا يقود إلى التمييز بين الحضارات المتعددة ، ما يعتمد الإبداع والتجديد منها ، وما يعتمد التقليد والاجترار. ويترتب عليه حضارات متواصلة متوالدة في ذاتها ، وحضارات مرحلية منقطعة ، تتحكم عوامل اجتماعية وسياسية – خارجية – في ظهورها واندثارها.

بعبارة أخرى، ثمة حضارات أصيلة وحضارات هجينة.

هذا على مستوى التعريف والتصنيف !... أما على مستوى التقييم ، فلم تنجُ حضارة من ارتكاب أخطاء، ترتبت عليها كوارث بيئية أو اجتماعية.

والسؤال هنا :

هل كان بالإمكان تفادي الضرر الحاصل (الشرّ !) ؟...

هل الضرر تلقائي أو مقصود ؟...

هل الشرّ كامن في العمل أو في البشر ؟...

هنا افترق العقل البشري في تيارين أو أكثر ، مميزًا بين الفكر الديني والفكر المادي، وما بينهما.

•

- الواقع و التصور

منذ البدء استخدم الإنسان عقله في معاملاته الحياتية، رغم أن الدور الأكبر كان للغريزة كمهماز وموجه. وبفضل ما يتمتع به من غريزة ونقاء روحي ، ارتسمت في مخيلته (مخيلة كل جماعة على حدة) أشكال وصور تقريبية للطبيعة والكون الأكبر. بعض هذه التصورات كان متجسدًا في الواقع في أشكال التضاريس الأرضية أو الإجرام السماوية أو النبات والحيوان. وما لم يكن مجسّدًا عمل على تجسيده في أشكال وتماثيل ، ذات أبعاد دلالية وسيميائية أكثر منها واقعية مباشرة.

كانت الميثولوجيا عنصرًا مهمًا لتشكيل علاقة كونية بين الفرد أو الجماعة والطبيعة (باعتبارها روحًا تحكم الأرض وتتولى منح الحماية والبركة والقوة). إن إدراك الإنسان لضعفه وما ينطوي عليه من نقيصة ، كان مهماز حاجته لحماية فوق عادية وغير مرئية. وقد استغرق زمنًا غير قليل لبلورة مداركه وتصوراته بالشكل الذي تنتظم في صورة أفكار وعقائد ، يتم ترجمتها في طقوس وممارسات وتقدمات للحصول على البركة والتكفير عن الأخطاء.

ويمكن استقراء ثلاثة أغراض للتصور الأول...

- عقد صلة مباشرة مع السيد الأكبر /الملك العظيم/صاحب الطبيعة والخلق.
- الحصول على الحماية والقوة والبركة.
- السعي للمثال والتكامل.

•

فلسفة الإغريق

يعود الفضل للإغريق في جمع الميثولوجيات القديمة ودراستها لوضع قواعد الفلسفة العقلية في القرن السابع قبل الميلاد ، وهو ما يضاهي انتقال الإنسان من حالة البدائية إلى الحركة الحضارية.

إن الدلالة الإغريقية لمعنى كلمة (فلسفة) هي أوسع كثيرًا من دلالتها في العصور الحديثة (ما بعد القرن السابع عشر). وهو ما يشتمل على جُملة العلوم والمعارف والآداب والفنون التي ينتجها العقل والمخيلة.

ويرجع الفضل لفتوحات الإسكندر المقدوني في نشر معارف الإغريق والتأسيس للهلنستية منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وهو ما يضاهي أثر حملة نابليون على مصر (١٧٨٩م) في حركة التنوير والثقافة الحديثة.

بذل علماء الإغريق وفلاسفتهم وقتًا أكثر لدراسة الكون (خارج الأرض). حيث كان التصور الأول أن الأرض مركز الكون كما ثبته بطليموس السكندري في كتابه (المجسطي) في (١٥٠) ق.م. واستمر هذا الاعتقاد حتى القرن السادس عشر، حيث أثبت نيكولاس كوبرنيكوس (١٤٧٣- ١٥٤٣م) مؤسس علم الفلك الحديث، أن الأرض تدور حول نفسها مرة كل يوم وحول الشمس مرة كل عام.

لقد حاولت فلسفة الإغريق وضع القواعد الأساسية وتنظيم المناهج والأطر لمختلف مجالات الحياة والفكر والسلوك، الخاصة بالفرد والجماعة والدولة. وعندما نلتفت اليوم في أي جانب من جوانب الحياة المعرفية ونتحرى جذورها فلابدّ أن نلتقي بالأصل الإغريقي أو اللفظ اللاتيني للمفردة.

لقد نقل الإغريق الإنسان من عصر الغريزة إلى عصر العقل، ولكن أثر الميثولوجيا والغيبيات لم يتغير كثيرًا في حياة الناس.

ويمكن القول على العموم، إن الجهد الفلسفي للإغريق انقسم إلى جانبين : البحث في الفلك والكونيات، والبحث في قواعد الفكر والسلوك البشري.

ويعبِّر كتاب (جمهورية أفلاطون) عن قدم الاهتمام بتنظيم الحياة البشرية داخل المجتمع وتقسيم الأعمال، وهو ما يتأصل أكثر فأكثر مع أرسطو [٣٨٤- ٣٢٢ ق.م.] الذي دعا لنشر الفلسفة العقلية المشهور بقوله : إن علينا أن نتفلسف، إذا

اقتضى الأمر التفلسف، فإذا لم يقتضِ الأمر التفلسف، وجب علينا أن نتفلسف، لنثبت عدم جدوى التفلسف. !. وهو مؤسس علم المنطق وصاحب كتاب الشعر ووصيته الشهيرة لكل فرد : (أعرف نفسك !).

ويمكن القول إنه مع أرسطو بدأت الخطوات الحقيقية للفلسفة الاجتماعية الإنسانية أو الفكر الاجتماعي مركزًا على بؤرة النفس والسلوك البشري. وبذلك انقسمت الفلسفة بين الاهتمام بالكونيات والكليات، وبين الاهتمام بالاجتماعيًات والجزئيات. أرسطو كان معلم الإسكندر المقدوني مند طفولته، وهو الذي أنزل الفلسفة من السماء إلى مستوى الأرض !.

•

- الدين و الفلسفة

اجتماع الدين مع الفلسفة مفارقة من مفارقات العقل، وذلك لاختلاف المرجعيات والأساليب ، ولكن ما يجمعها في سلة واحدة في هذا المضمار ، هو الغاية (الإنسان) ودرجة تقربه من الكمال (الله).

أمَّا الأمر الآخر الذي يجمع الدين والفلسفة في سلة واحدة، فهو علم المنطق ، الذي وضع أصوله أرسطو. ولا يوجد فكر ديني لا يقوم على المنطق !.

يقول أحد الكتاب في مجال المقارنة والالتقاء بينهما : إن الدين يبدأ بغير المنظور (الايمان هو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى/(عب ١١-١) ؛ وينتهي بالمنظور الذي هو (الإنسان).

أمَّا العلم فهو على العكس من ذلك ، يبدأ من المعلوم / المنظور ليكتشف المجهول. كما أن العلم يبدأ من الشك ليصل إلى الايمان ، بينما يبدأ الدين بالإيمان، ليصل إلى (يقين الايمان).

والعلم يستخدم التجربة والحواس، وهو غير الممكن في الدين.

لكن الصلة التي تبدو مستحيلة في الظاهر العام ، سرعان ما انعقدت عبر منهجية أرسطو التي وجدت قبولاً لدى رجالات اللاهوت سواء في عصر الآباء الذين مازجوا بين العقيدة المسيحية والفلسفة الإغريقية ، أو العصور الوسطى ممثلاً بالفلاسفة المدرسيين مثل توما الأكويني (١٢٢٥- ١٢٧٤م). (ويرى كثير من المؤرخين أن أهم عوامل – النهضة الأوربية- كانت المزج الفريد بين فكر اليونان وفكر الكتاب المقدس (جورج صامويل) وكان مؤسسو العلم الحديث إما من رجال الدين أو العلماء الأتقياء)/ص٢٠.

•

من الفلسفة المثالية إلى الوجودية

تزاوج الدين بالفلسفة، أسفر عن سمتين رئيستين :

عودة الاهتمام بالكليات بدل الجزئيات ، واستمرار الاهتمام بالجانب الاجتماعي والإنساني. والسمة الثانية هي : هيمنة النزعة المثالية على الفلسفة. فكان لابدّ من ظهور لودفيج فويرباخ / (L. Feurbach) [1804- 1872] (•) ، بدعوته للاهتمام بالإنسان بقوله : إن الشعور الديني يتولد عن أماني الإنسان، وأن الدراسة الفلسفية الصحيحة هي دراسة الإنسان نفسه !، وبذلك تنتقل الفلسفة من المثالية المطلقة لدى هيجل إلى الإنسانية.

وهكذا دشّن (القرن التاسع عشر روح قرن جديد يسعى حثيثًا إلى خلق فلسفة جديدة عن طريق تفتيت النتيجة التي انتهت إليها الهيجلية ، وتتمثل هذه الروح الجديدة في تيارين عظيمين لا يزالان يتقاسمان الفكر المعاصر حتى يومنا هذا هما : الوجودية التي ترتكزعلى الفرد ، ممثلة بالدانماركي سرن كيركجورد [١٨١٣- ١٨٥٥م] ؛ والماركسية التي ركزت اهتمامها على الحياة الاجتماعية

• لودفيج فويرباخ في كتابه (جوهر المسيحية)- Essence of Christianity.

والاقتصادية المحيطة بالإنسان)/ص ٨.[•]

فيما حاول جان بول سارتر [١٩٠٥- ١٩٨٠م] التوفيق بين التيارين في مشروعه الانثروبولوجي (بكسر ما في الماركسية من جمود وشكلية، وقوالب جاهزة، ويجعلها تهتم بالفرد).

وغير هؤلاء ، ساهم مفكرون وفلاسفة عديدون في إغناء تراث الوجودية وتثبيت معالمها ، أمثال هيدجر وسيمون دي بوفوار وكامي ويسبرز وكولن ولسن وآخرين. إلا أن الفضل الأول يبقى لرائد الوجودية بمختلف اتجاهاتها المؤمنة والملحدة، وهو الذي نحت مصطلح الوجودية (Existentialism).

أدارت الوجودية ظهرها للموضوعات الأكاديمية والمعارفية المأثورة لدى المدارس الفكرية وما قبلها ، وعنيت بموضوعات الحرية والمسؤولية والإرادة ، مما يشغل جوهر الوجود الشخصي للفرد. ناهيك عن موضوعات اليأس والاغتراب والقلق والموت والتناهي والإثم والخطيئة والتطهير.

وهي على العموم توصف بأنها (أسلوب جديد من التفلسف يتسم بسمات خاصة ، منها أنها تبدأ من الإنسان لا من الطبيعة ، وأن التفلسف ينصبّ على الذات لا على الموضوع، وأن الذات الوجودية ليست ذات مفكرة وإنما ذات فاعلة).

•

- سرن كيركجورد

"لقد منحني الله القدرة على أن أعيش لغزًا".- يوميات ١٨٤٨.

يقول سقراط :(إن الحياة التي لا يتم فحصها ، غير جديرة بأن يحياها الإنسان). ويبدو أن هذه العبارة هي ما دفع كيركجورد لدراسة حياته ، التي شكلت الأساس الذي بنى عليه فلسفته. ويقول في المعنى : المهم أن أفهم مصيري أنا ، وأن

• **كارل ماركس (١٨١٨- ١٣٣٣) - في كتابه: نقد فلسفة هيجل السياسية.**

أدرك ما يريد مني الله أن أفعله، أو أجد الحقيقة التي تكون كذلك بالنسبة لي أنا أن أجد الفكرة التي أكرّس لها حياتي ومماتي.!

ولد كيركجورد في أسرة غريبة الملامح ومضطربة السمات، وقد عبَّر عن تلك الأسرة بكلمة (اللغز !). أما عن نفسه فقال (ذلك الفرد) وطلب أن تنقش فوق قبره. كان والده الأوسط بين تسعة أبناء، في عائلة فقيرة، وكان هو (ميخائيل كيركجورد) راعيا حتى الثانية عشرة من عمره، وقد ضاق بفقره ذات يوم ووقف على ربوة مكلمًا الله وشاكيًا، ثم لاعنًا. وكان له عمٌّ يعمل تاجرًا في المدينة، فجاء هذا ذات يوم لزيارتهم، واختاره لمرافقته للمدينة ومساعدته في العمل.

عمل كيركجورد الأب مع عمه ثم استقل لحسابه تاجرًا في النسيج، ثم افتتح فرعًا آخر وفروعًا أكثر وصارت الأموال تنساب بين يديه بدون حساب. وذاع صيته في البلاد وانتقل من تجارة الداخل للتجارة الخارجية.

وصادف أن ألمَّت بالبلاد أزمة مالية أصدرت الحكومة على أثرها أوراقا مالية بدون غطاء نقدي، مما ترتب عنه انخفاض قيمة العملة إلى عشر القيمة. ولم ينج من الخراب إلا الدفوعات والصكوك الأجنبية.

انتبه الأب لثرائه المفاجئ، وتذكر طفولته وفقره، وحديثه مع الله وشتائمه، فهل استجاب الله لشكواه، أم أن الله يريد أن ينتقم منه للعناته؟.

من المهم هنا التنويه أن كلمة كيركجورد (Keirkegaard) الدانماركية تعني (لعنة).

لم يتزوج الأب لانشغاله بالتجارة واللهو ، حتى قارب السابعة والثلاثين (١٧٩٤م). وعندما تزوج ماتت زوجته بعد عامين دون أن تنجب. وبعد ثلاث سنوات اعتزل العمل ، ليعيش على أمواله المكدسة. ثم تزوج من الخادمة (١٧٩٧م) التي ربطته بها علاقة سرية. أنجبت الخادمة له ستة أطفال ، ثلاثة

بنين وثلاثة بنات. وتوقفت عن الإنجاب مع بلوغها الخامسة والأربعين وكان هو في السادسة والخمسين. ولكن الأقدار تتدخل بطريقة غير مفهومة، وتهمس الزوجة لزوجها في غمرة الفرحة بالنجاة من الخراب المالي الذي حاق بالبلاد، بأنها تنتظر حدثًا سعيدًا.

وفي الخامس من مايو تضع الطفل الذي سوف يخلد الأسرة،[Sören Aabye Kierkegaard].

لكن مخاوف الأب استيقظت من جديد خوفًا من حادثة المولود الجديد. مات ابنه الخامس في الثانية عشرة من عمره متأثرًا بمرض عصبي، وماتت ابنته الكبرى في الثانية والعشرين. وازدادت قناعة الأب أن الله كان يعاقب بني إسرائيل في ذريتهم، وهو (يعاقبه في أبنائه. فيحرمه منهم واحدًا أثر واحد حتى يتركه وحيدًا في النهاية يعاني من يأس قاتل) / ٧٧. (•)

لم يسمح الأب لابنه الأصغر بمغادرة البيت، وكان يأخذه من يده ويدور به في الحجرة يوميًا ، وهو يحدثه عن أجواء المدينة، متوقفًا هنا وهناك، كما لو كان عيانا. وكتب على الطفل أن يرث مخاوف الأب ، وقلقه وتدينه.

وكان يجتمع إليه في منزله جماعة من طائفة المورافيين (•) في نهاية الأسبوع. يبالغون في الصلاة وطقوس العبادة والتضرع المصحوبة بالبكاء والحزن والندم الشديد والتوبة.

وبفعل تأثير مخاوف الأب ، لم يمارس كيركجورد الابن عملاً في حياته ولم يتزوج، مستفيدًا من ثراء والده، وكان يعاني من تشوه شكله ويصف نفسه بالكانغرا لقصير اليدين. ولكنه إلى ذلك اشتهر بروح النكتة والدعابة، التي

- **د. فوزي إلياس- الكتاب المقدس والعلم الحديث- ١٩٨٧- دار الثقافة- القاهرة.**
- **المورافيين طائفة بروتستانتية أنشأها المصلح الديني جون هس في القرن الخامس عشر في بوهيميا وموراڤيا.**

يخفي تحتها آلامه وضيقه بنفسه. وهو ما دفعه للانطواء والعزلة ودراسة تاريخ أسرته وحياته الخاصة، مستفيدا من علوم الفلسفة واللاهوت، مؤسِّسًا للوجودية (المسيحية) بمناقشاته الحادة وآرائه الجريئة.

•

- كيركجورد والكتابة

في تأملاته التي لخَّص فيها جوهر مؤلفاته المستعارة كلها تحت عنوان : خاتمة محتملة لجميع أعمالي ذات الأسماء المستعارة بقلم نيكولاس نوتابن (Nicolaus Notabene)، يقول : سوف أخبر الجمهور الكريم الآن كيف أصبحت مؤلفًا ؛ القضية بسيطة للغاية : لقد أنفقت بعض سنوات عمري طالبًا كسولاً متعطلاً إلى حدٍّ ما...أقرأ قليلاً وأفكر قليلاً.

غير أن سنوات المراهقة كان لها عندي اليد الطولى. وقد حدث أن جلست بعد ظهر يوم من أيام الآحاد، في مقهى فردريك سرج، أدخِّن سيجارًا وأتأمل الفتيات العاملات، وفجأة خطر لي خاطر فقلت لنفسي : أنت لا تزال تضيع وقتك عبثًا، مع أن العباقرة قد ظهروا في كل جانب، واحدًا أثر واحد، وحاول كل منهم أن يجعل الوجود والحياة، ووسائل الاتصال عبر التاريخ، والاتصال بالسعادة الأبدية... أسهل وأسهل، فماذا تفعل أنت ؟... ألا يمكن أن تكتشف طريقة ما تستطيع بواسطتها أن تعين الأجيال وتساعدهم؟.

عندئذٍ سألت نفسي... لِمَ لا أجلس وأجعل كل شيء أكثر صعوبة؟ !. إذ لا بدّ أن أكون نافعًا بطريقة م !ا.

•

- من دروس المعلم كيركجورد

- كل إنسان ينتقم لنفسه من العالم، وانتقامي يكمن في محافظتي على آلامي وهمومي داخل نفسي عميقة مطمورة، وأن أُسلِّي الآخرين جميعًا بضحكي.
- عزائي أن أحدًا لن يستطيع بعد وفاتي أن يجد تفسيرًا واحدًا لما كان يملأ حياتي كلها، لن يجد الكلمات التي تفسِّر له كل شيء.
- لم أعش قطّ، بالمعنى الإنساني للكلمة، لقد كنت فِكرًا؛ من البداية إلى النهاية.
- ليس لي سوى صديق واحد : هو الصدى، ولِمَ كان صديقي؟... لأني أُحب آلامي، وهو لا يحرمني منها. وليس لي إلا مستودع واحد لسري، هو سكون الليل، ولِمَ؟... لأنه صامت.
- أنني أقول عن آلامي ما يقوله الإنجليز عن بيوتهم، أن ألمي هو قلعتي.
- أنني آمل؛ بفضل العذاب الذي أتحمله؛ أن أكون شوكة في جنب العالم.
- لقد ذقت الفاكهة من شجرة المعرفة، واستمتعت بمذاقها، غير أن هذه اللذة لم تمكث إلا لحظة المعرفة فحسب، ثم تمضي دون أن تخلف بصماتها العميقة داخل نفسي، وأنه ليبدو لي أنني لم أشرب من كأس الحكمة، لكني سقطت في هذه الكأس.
- الإنسان ينبغي له أن يعرف نفسه، قبل أن يعرف أي شيء آخر. وبعد أن يفهم الإنسان نفسه من الناحية الداخلية، ويتبين طريقه على هذا النحو، هنا فقط سوف تنعم الحياة بالسلام والمعنى.
- الله لا يفكِّر، إنه يخلق... الله لا يوجد، أنه أبدي... أما الإنسان فهو يفكِّر ويوجد، والوجود الفعلي للإنسان Existence هو الذي يفصل بين الفكر والوجود العام Being.
- أريد أن أكتب قصة، يصبح أحد أبطالها مجنونًا، وأظل أكتب وأكتب... حتى أتحدث أخر الأمر بلسانه، أو أجعله يتحدث بلساني.

– الخوف... يعني أنك تعرف الشيء الذي تخاف منه، فهو خوف من وجود متعين... أما القلق فهو الخوف من مواجهة الواقع كله، الخوف من الوجود بأسره.
– آه، اندلعت النيران في كل شيء... لا يمكن أن يحترق، اندلعت داخل نفسي.

•

- كيركجورد والمسيحية

يرى الكاتب إمام عبد الفتاح إمام أن أحد أسباب عزوف كيركجورد عن الزواج من خطيبته ريجينا كان (شعوره بأن مهمته في هذه الدنيا روحية، وأن عليه أن يقوم برسالة دينية كالمسيح والقديس بولس، ومن ثم لا بدّ أن يكون مثلهما عازبًا) / ١٣٨.(*)

يرى المؤرخون أن كيركجورد كان لديه ميل خفي لإقامة (مذهب مسيحي) رغم معارضته الشديدة للمذاهب وللنسق الفلسفي بصورة عامة فقد استهوته (المذهبية الهيجلية) رغمًا عنه، ولهذا كان في كثير من الأحيان يعالج تصورات مجردة ومفاهيم عامة، ثم يحاول الربط بينها، مثل (مفهوم القلق)، و(رسالة في اليأس)، و(العبقرية والجنون)، و(بين الحقيقة والجنون)، حيث تشيع المذهبية والتعميم.

ويقول هربرت ماركيوز : إن أعمال كيركجورد تمثل آخر محاولة كبرى، لاسترجاع الدين بوصفه أداة نهائية لتحرير الإنسانية، من الأثر الهدام لنظام اجتماعي غير عادل.

أما ديفيد روبرتس (D. E. Roberts) فقد قال عنه : في أي مناقشة للوجودية المسيحية، سوف يكون سرن كيركجورد، الشخصية الرئيسية بلا جدال. لم

• د. إمام عبد الفتاح إمام- سرن كيركجورد رائد الوجودية- ط٢- ١٩٨٣- دار التنوير للطباعة- بيروت.

يقتصر أثره على ميدان اللاهوت ، وإنما امتدَّ إلى أولئك الكُتَّاب المعروفين بكونهم ممثلين للوجودية غير المسيحية ، كالوجودية اليهودية ، وكذلك الوجودية الملحدة.

•

- العولمة

تتعدد تعريفات العولمة وتتفاوت شرقًا وغربًا ، بيد أنها بصياغتها الأمريكية ليست غير عنوان لإمبراطورية إمبريالية كشرَّت عن أنيابها عقب الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥م) ، واستأسدت باستفرادها الهيمنة الدولية عقب انهيار النظام الاشتراكي (١٩٨٩م).

اقترنت العولمة بانتشار ثورة الاتصالات التقنية المتمثلة بأطباق البثّ الفضائي الدولية ، وشبكة الإنترنت وشبكات الهواتف الخلوية ، وكلها من العابرة للقارات والحدود ، مع مركزيتها الخاضعة لاحتكار أمريكي.

وعلى غِرار الثورة الإلكترونية الاتصالية ، عمدت الولايات المتحدة الأميركية لاعتماد نظام عالمي اقتصادي جديد ، يهدف إلى جعل العالم وحدة اقتصادية ، تقودها قمة الدول الصناعية الثمانية بزعامة أميركية ، مدعومة بالأطر السياسية التي توفرها جمعية الأمم المتحدة ، التي تحولت إلى مكتب تابع للخارجية الأميركية منذ التسعينات.

إن إعادة تقسيم العالم إلى مجموعتين ، صناعية منتجة ، وتنموية مستهلكة ، بإدارة صندوق النقد الدولي ومؤسسة البنك الدولي ، لا يترك آثارًا سياسية واقتصادية فحسب ، وإنما يتعداه إلى ما هو أبعد منه ، ممثلاً في الأثر الاجتماعي والنفسي والثقافي للسلعة الاقتصادية والسياسة الدولية.

بعبارة أخرى، أن العولمة ليست سوى (أمركة) (•) مباشرة وعارية. وأن العالم منذ عقد ونيف، موغل في التأمرك على صعيد اللغة والثياب وألعاب الأطفال والأكلات السريعة وطراز العيش الأمريكي، وما يعنيه كل هذا من عقدة الانتماء والهوية، والنزعة المادية والاستهلاكية.

وعلى صعيد الخطاب الثقافي السياسي، انحسار تام للفكر الاجتماعي اليساري، وانجراف كامل نحو اليمينية (القومية والدينية)، والثقافة الإلكترونية المسطحة، والإعلانات التجارية. بكلمة واحدة، أن الأمركة الإمبريالية تعني، تقزيم الفرد وسحق الكيان الإنساني، وإنتاج قنانة اقتصادية إلكترونية، لا تعرف غير خدمة ماكينة الاقتصاد بالعمالة الرخيصة والاستهلاك المفرط.

لم يتنازل أحد عن جهازه المحمول، ولن يتردد عن شراء هاتف جديد، يطرح غدا تروج له الإعلانات، بوجود خاصة إضافية أو شكل مختلف، وهو ما ينطبق على موضات ومجالات حياتية أخرى، شغلت الكثيرين عن مشاكلهم الحقيقية، ومشاكل بلادهم.

إن معظم العوائل اليوم تشكو من أوضاع أطفالها وانجرافهم للألعاب الإلكترونية العنيفة وانشغالهم بالتفكير بالمادة والماديات، على حساب الثقافة والدين والأخلاق.

وأن الأغلبية يفضلون اليوم كرة القدم (•) والرقص وعروض الأزياء على دراسات الطب والهندسة والتخصصات الأكاديمية. وتشكو عموم البلاد الغربية

- **د. أحمد البغدادي- أحاديث الدين والدنيا- الواقع المفارق للنص الديني- دار الانتشار العربي- بيروت- ٢٥٥٥- ص٢٥٥ : إن نظرية صدام الحضارات التي عرضها المفكر الأميركي صمويل هنتنغتون، وأحد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وما رافق ذلك من تأسيس نظام دولي دولي جديد، من خلال العولمة الي أمسكت الولايات المتحدة بزمام تام لتدرو فيها، حتى وصفها البعض بالأمركة بدلاً من العولمة.**
- **توفيق الحكيم- الكاتب والفيلسوف المصري في وصفه تغير مضمار الحياة : جاء عصر القدم وانتهى عصر القلم !.**

من انخفاض نسبة الدراسات العليا والأكاديمية ، لصالح زيادة مساحة العمالة الوسيطة والمحدودة الثقافة والوعي وتفاقم أزمة المهاجرين.

•

- الوجود في زمن العولمة

كيف يجيب شباب اليوم على سؤال أرسطو القديم : اعرف نفسك؟...
وماذا يحدثون سقراط الذي يقول أن الحياة التي لا يتم فحصها غير جديرة أن تعاش !.
ما المقصود بالفحص في ضوء ثقافة اليوم الاستهلاكية؟...
هل هي فحص الهاندي أم الكمبيوتر أم الدعاية الإلكترونية؟...

ما هي الأُسس الثقافية والفكرية التي تؤهل الناشئة لطرق أي موضوع سياسي أو ثقافي خارج لغة الإعلام الاستهلاكية؟...
وماذا تعني الفلسفة والوجودية لكثيرين اليوم؟.

عقب الحرب العالمية الثانية كتب كولن ولسن عن سقوط الحضارة : وانتشر تيار التشاؤم في غرب أوربا وتحولت وجودية سارتر إلى مزيد من الاهتمام بالإنسان.

إن الإنسان اليوم في أزمة، وهي أزمة ذات، قبل أن تكون أزمة هوية أو دين. والحضارة الجديدة – إذا اعتبرنا العولمة حضارة بالقياس التاريخي – قد انقلبت ضد الإنسان. وكما في العصور الأولى والوسطى ، مرة أخرى تلتقي الفلسفة والدين على بساط واحد، لمقاومة الحضارة الجديدة بوصفها الشرّ، أو الخراب.

اليوم أكثر من أي وقت... نحن بحاجة لاستذكار الفيلسوف الروسي ليو تولستوي والشمال أفريقي ترليان في موقفهما من الحضارة.
ولكن قبلهما، علينا إعادة قراءة أرسطو وفويرباخ وكيركجورد وروسو.

الفرد والعالم

- في معاني الحرية والإتكالية -

المرحلة الراهنة التي يمرّ بها العالم، هي مرحلة انتقالية نوعية.

والمرحلة الانتقالية عندما تتعلق ببيئة ثقافية غير متجانسة، ومتفاوتة حضاريًا ومدنيًا، فأنها تقع أسيرة الفوضى، أكثر مما يمكن تسميته بالاضطراب وعدم الاستقرار. وعدم الاستقرار هنا لا يقتصر على أنماط الحياة والمعيشة والفكر، وإنما يتعداها إلى منظومة القواعد والقوانين والقيم التي تنظِّم حركتها.

واصطلاح نظام عالمي جديد، أو نظام اقتصادي عالمي، كما ظهر إبان السبعينيات المنصرمة، كان تعبيرًا إعلاميًا ضبابيًا، ليس من تشيئاته الأوضاع التي تتكشف وتتجلى يومًا بعد يوم كمعجزات سلبية، لا يُستكنه مآلها.

وكما سبق القول، في مكان آخر، لم تضع هذه المرحلة، الشعوب وثقافاتها في مواجهة امتحان صعب، وإنما وضعت الأفراد individual في مواجهة العالم ومواجهة أنفسهم.

•

- البحث عن الذات

الضياع هو الصفة الأكثر اقترانًا بالفوضى.

الضياع هو الحالة الأشدّ فظاعة ورعبًا في الوعي الإنساني.

الضياع، ليس باعتباره فقدان الهوية والخطاب، وإنما فقدان الوسائل والأساليب التي بواسطتها يستطيع تحقيق ذاته.

وفي المستويات الشديدة هو فقدان الرغبة والإرادة لتمثيل ذاته في المجتمع.

أن تكون أو لا تكون، ذلك هو السؤال !.

عندما يفقد المرء الرغبة في الكؤون، يعني انه تجاوز تساؤل (يكون)، للوصول إلى التجرد التام من الذات، أو الانسلاخ عن البشرية، أو الانسلاخ عن الحياة وإقنومها بالنتيجة، أي الانتحار (النفسي والجسدي)، والانتقال إلى عالم آخر.

بلوغ هذه النتيجة يقتضي مراحل نوعية من التفكير ووعي العالم.
وبقصد أو بغيره، فليس التفكير ديدن الجميع، أفرادًا أو ثقافات.
وكذلك التضحية التي يتضمنها (الانتحار)، ليست دين الجميع.
لأن التضحية بكلّ الأشياء، أفضل لديها من التضحية بالحياة.
فمن أجلها (الحياة)... يضحي المرء بكل شيء ويقبل المهانة والعبودية.
فلا غرو، أن يكون عدد المنتحرين قليلاً، مقابل المستعدين للمسايرة والتقمص.

•

- ركوب الموجة أو (الموضة)

فئتان تركب الموجة العالية أو (الموضة) السائدة... الأولى، فئة انتهازية آلت على نفسها ركوب كل موجة والسعي لكل مكسب وتصدّر كلّ مشهد... وفئة أخرى، هي الناشئة أو جيل الشباب الذين يجدون أمامهم نمط حياة مختلف عن (حياة الآباء)، بكل ما يشدّهم إليه من مغرَيات ومميزات، تمنحهم مزيدًا من الاستقلالية عن الجيل السابق، والاندفاع للغرف من سمات عصرهم، وما يتيحه لهم من مزايا وفرص.

•

- موجة عالية... وموجة دانية

ثمة مستويان للتفاعل مع الموجة العامة (المحيط) : التفاعل التام والمتناهي، التفاعل الجزئي والمحدود.

التفاعل التام هو ما يحدث مع الموجة العالمية، أيّان كان مصدرها أو اتجاهها

وقوتها ، كما حصل مع موجات الشيوعية والماركسية والوجودية والنازية وتشيفارا والبيتلز والتشارلستون والهيبيز (التخنث والاسترجال) والميني والماكسي والريجيم (القاسي) والجينز أواسط القرن الماضي.

ويقابلها اليوم منتجات العولمة من موضات الأطعمة (السريعة) والثياب واللكنة (الأميركانزم) والهاتف الجوال والنت وثقافة العنف والاستفزاز.

في هذه الفئة ، تكون المرجعية المحلية أضعف ما يكون ، بحيث يتنكر لها الشخص ويستعلي عليها ، محققا ذاته ضمن نسيج أوسع وأكثر شمولية وعالمية (جغرافية).

يختلف عن هاته فئة ، أكثر وعيًا وانحيازًا للهوية المحلية ، وفي الغالب ، على خلفية موقف أو تنشئة سياسية أو دينية ، تقف بالمرصاد ، للموضة (العالمية) ، محتمية بموضة محلية ، مضفية لها كل ما يليق من كبرياء وفخر وبطولة واستماتة من أجل الحياة.

شكَّلت الحركات الوطنية والقومية في القرن الماضي صدى هذا الاتجاه، مع ما يوافقه من انحياز للتراث والقبيلة.

ومع تراجع مفاهيم الوطنية (لصالح النظام العالمي) والقومية (لصالح عولمة الثقافات) ، ظهرت الهوية الإسلامية مع بدايات القرن الحادي والعشرين ، المشتركة مع الحركات القومية (العربية) في ناصية (التراث والقبيلة)، كسمة أو موضة بديلة للتيار الوطني والقومي محليًا ، ومواجهة الأمركة والعولمة على الصعيد الأوسع.

•

- موضات محلية

(الموضة) مفهوم سائد في كل مكان وزمان ، وليس ميزة لما يحدث اليوم إطلاقاً.

والحق ، أن (الناس على دين ملوكها !) ، كما يذكر التراث. الناس هم الناس ، ولكن أشكالهم ولغاتهم وثيابهم تتبدل وتتلوّن. ولو تهيّأ للبعض ، ألبوم تاريخي مصور ، لأجيال سلالاتها عبر قرون ، لكانت أكثر من يضحك من نفسها ويسخر من أفعالها. ولكن للطبيعة حكمة ، والنسيان نعمة.

إنهم يفعلون اليوم ما استنكره بعضهم قبل قرن أو أقل أو أكثر. وكلّما كانوا أكثر اندفاعًا اليوم في هذا الاتجاه ، كانوا أكثر عصبية في اتجاه مقابل ونقيض له.

فالعصبية والاندفاع والانفعال آفة ، لا تأكل غير نفسها ، وتأتي على محامدها ، فلا تشعر من نفسها بشيء ، ولا ترتضي غير ما تراه سبيلاً.

من أسوأ الخلق ، اتباع الدول والحكام والأمراء ؛ في سُبل المعيشة والوظيفة والحياة. فإذا انقلب الحكم وتغير الحاكم ، انقلبت معيشتهم واختلفت ألسنتهم ، وكانوا مثل الراقصة والزمّار.

•

- الأهواء والأمراء

من مواضع الجدل الصراع القديم بين الفرد والجماعة ، بين الشخصية والحكم. والتي كان من نتائجها تقنين جُملة قواعد وأوامر ، للنهي عن الهوى والأهواء ، وفضيلة اتباع أولى الأمر والأمراء.

قد لا يكون التفرّد والتمرد صفة الجميع.

فالذات المستكينة ، أو المجبولة على الاستكانة والمسخ عاجزة عن تحقيق ذاتها ،

لذلك ترتجي ما تسعى في أثره وتتوخى تقليده.

ولكن وجود قانون يحظر بواعث التفرد والإبداع، ويسمها بالبدعة أو الصبأ أو الزندقة، هو مما يقتل سنّة التطور والتغيير في حركة الأفراد والمجتمعات.

والحق، أن كثيرًا من الأفكار والمظاهر، جرى استنكارها ومحاربتها في بداياتها ثم وجدت مسراها التاريخي، واكتشف البشر محاسنها وجوانب الفائدة فيها.

•

- المركزية والديمقراطية... القانون والحاجة

في حالات معينة، تقهر السلطات شعوبها على تقليد نمط معين من الزي أو الرأي وطرائق المعيشة، فيعتذر الناس بعسف الدولة وطاعة الجور (ولو كره الكارهون).

وفي أحوال أخرى، تعصى سبل المعيشة على البعض، فلا يجدون غير سبل الشرّ مفتوحة أمامهم، فيلجونها. وحجتهم فيه أن (الجوع كافر) ومقولة (لو كان الجوع رجلاً لقتلته). والصحيح أن هؤلاء المدّعين، يتملقون ملك الجوع وحكم التجويع والترغيب، حتى يطمئنوا لأسفل بطونهم.

في هذا المجال تبرز ظاهرتان: الانخراط في أجهزة العنف الأهلي كالشرطة والجيش والأمن والمخابرات وما إلى ذلك، وهي أدوات تمارس العنف بالاستعاضة تحت غطاء سلطة حامية، وتجني من عملها مكاسب، منها ما يدخل بطونها ويثخن أحشاءها.

ويناظر هذه الحالة أو الفئة، ما يحدث أثناء القلاقل والفوضى مثل ظروف الحرب الأهلية في لبنان وأفغانستان وعراقستان. ضمن موضة الانخراط في الجماعات المسلّحة لممارسة العنف ضد البيئة والإنسان لقاء الحصول على مكاسب مادية وحماية وظيفية.

إن الإنسان هو الأسلوب. والأسلوب هنا هو عمل يمارسه، أو فكر يجتهد فيه، فيبدع ويجود.

•

- من تنازل عن كرامته... لا يستحق إنسانيته

نتوقف هنا عند حالة الشحاذ (الكدية)...
"المال مال الله، والسخي حبيب الله".

إنه يقتعد موضعًا من السوق، قريبًا من مطعم أو متجر، أو (بنكومات) في الكوينزوي، يمدّ يده للمارة، مستخدما هيئة جسده، والتواءات لسانه لاستدرار قروش. بعضهم، وما أكثرهم مع موسم الصيف والسياحة، يدورون مع المارّة، يدخلون بين المرء وذويه، ولهم في ذلك عليه حجة في لسانه، فانطلقت ألسنتهم تسخر اللغة القومية للاستجداء والكدية. لا تخلو مدينة أو دولة عربية أو مسلمة من (المكادي) والشحاذين والمشعوذين وتنابلة المال.

أمَّا أفظع مظاهر الكدية، كالتي في بلدان تعتاش على السياحة وتفتخر بتاريخها وحضارتها. حيث تتولى فرق من الشحاذين والمكادي استقبال السُيَّاح (الأجانب) من عتبات المطار إلى فنادقهم وأسواقهم ومراكزهم السياحية. وكم مرة أعرب (سُيَّاح) عن (امتعاضهم) أو (تعاطفهم) من كثرة المكادي في البلد الفلاني، سيما من فئة الأطفال. وعلى مثل هاتيك البلاد أن ترفع شعار [الكدية (وليس السياحة) مورد من مواردها القومية].

أما وأن الحال ضاق، والمكادي زادوا في البلاد، فقد عرف بعضهم طريق الهجرة، وساهموا بنقل مظاهر حضارتهم إلى العاصمة الإنجليزية، فأضفوا عليها الطابع الشرقي والعروبي والإسلامي للندن، ملامح تزيد من تماهيها مع بلدان المنشأ، وتقلل من غلواء حنين الممنوعين من السفر إلى أجواء بلدانهم.

ومن ملامح تدني الكرامة الشخصية وارتفاع شأن المادة، أن أصبحت العلاقات الاجتماعية سبيلاً للاستعطاء غير المباشر، باسم العلاقة أو الصداقة أو الحب بين الجنسين. وغالبا تكون الشكوى من الحياة ومتطلباتها أو الحاجة الراهنة لدفع فاتورة أو أجرة تاكسي أو دين قديم، قصة مكررة تحت غطاء العلاقة الاجتماعية، سيما حين يلمح طيبة الآخر واندفاعه في إخراج النقود. فهناك أشخاص يستعطون باستمرار بلا خجل أو حرج، بل هم يحرجون سواهم، وهؤلاء فئة شائعة في متروبوليتان لندن. وفي مواسم السياحة التي تتعدد أغراضها وأنماط شخوصها، تجتمع فئات المانحين والمستعطين في لندن.

على سبيل المثال... ومن أمثلتها، سيدة مقيمة في الغرب، تحضر إلى لندن في الصيف، وتتجول في المناطق التي يتواجد فيها الخليجيون وعوائلهم، وهي تجيد عدة لغات بينها أطراف العربية ؛ محاولة التعرف على أفراد الأغنياء وعوائلهم، أملا في الحصول على وظيفة لديهم تنقلها إلى فردوس الخليج.

ومن بنات هذا الصنف من في سن الشباب، من يستخدم سنارة الحب والغزل لاصطياد أو تصيد مصادر المال. وفي يوميات لندن أمثال وقصص لا تخلو من الطرافة والأسى والحرج بين المقيمين والسياح على حد سواء. منها ما تسلل إلى عوالم الأدب القصصي والروائي بشكل أو آخر كما في رواية حنان الشيخ: إنها لندن يا عزيزي !.

ولا شك، أنه قبل عقدين من السنين، لم تكن صورة بلدان تعتاش على القروض واضحة ومفضوحة كما اليوم. فما عادت العلاقات الخارجية لكثير من بلدان الشرق الأوسط غير نماذج استعطاء واستجداء الأموال والأسلحة والمساعدات الإنسانية والأمنية، علناً.

•

- حدود الذات وجغرافيا الآخر

لا يوجد كائن بلا ذات، مهما بلغ صغر الكائن وضعته. وأبرز علائم الذات هي الفردية. وهي تحقق فرديتها بالشعور والانفعال، وهما صنو الرغبة والإرادة. فالكائن يشعر، وهو سيد شعوره، وشعوره ملكه المحض الذي يشكِّل علاقته بالآخر.

الطفل المولود حديثا، لا يرتبط بهذا العالم، رافض له. ولكنه بعد حين يشعر بالجوع أو البرد، فيلتقم الثدي ويلتصق بدفء الصدر. فالشعور / الحاجة حققت وحددت علاقته مع المحيط الجديد، وهي العلاقة التي ستستمرّ ردحًا من الزمن، حتى يتحقق التآلف التام والانتماء الجديد.

من الناحية النظرية، إن الكائن، عبر قناة الحاجة المادية أو المعنوية، فقد فرديته الخاصة وبدأ في الذوبان في بوتقة العام (المحيط والبيئة). ولكن من الناحية العملية، إن درجة العلاقة، الانتماء، الذوبان، تبقى رهن فردية الشخص أو ذاته.

إن مقدار حاجة الفرد للطعام (مثلاً...) أمر يقع تحت سيطرته وتحكّمه. وكذلك حاجاته الأخرى ومتطلباته الجسدية والروحية والبيئية.

ان الذات (الخليقة !) هي مركب ضعفات وحاجات، وقرينة اجتهاد وسعي، للوصول ثانية إلى استعادة استقلاليتها (فرديتها) التامة، عبر سيرورة وصيرورة التكامل والتسامي والنمو العقلي والروحي.

•

- ذات بلا جسد...

تجتهد الأفكار والفلسفات في التمييز أو الفصل بين الروح والنفس والجسد والعقل. كما تختلف في تفسير وتصنيف لواحقها وإفرازاتها.

من غير اليقيني هنا مدى صحة الفصل أو جدواه بالمنظور الوجودي أو الروحي. لكن المؤكد أن البذور الأولية زادت من شقاق الفكر وشقاء البشر في فوضى من المعتقدات والهلوسات التي لا يعرف خيرها من شرِّها.

لا يهمنا من ذلك في هذا المجال، غير ما يتعلق بالجسد، وسيما زاوية الارتزاق به.

النظر للجسد كسلعة صالحة للاتجار، البيع والشراء في الفكر البشري، قديم قدم الأديان نفسها. وبغض النظر عن تلك المفارقة الاجتماعية التي تتكشف عنها الديانات المختلفة في الحطّ من قيمة المتاجرين بها ونبذ أساليبها وآثارها.

ومع تأكيد فن التسويق والإعلان على تأنيث كوادرها وطواقم خدمة الزبائن، مميزة بخفة الدم والمرونة والكلام المحمل بالإيحاءات، دخل التبشير والدعاية الدينية سوق توظيف / استغلال جنس النساء لاجتذاب الآخرين في الساحات العامة والشوارع وواجهات التسوق. فالعولمة بالمفهوم الشرقي هي تسويغ وجود الفرد خارج بلده بغض النظر عن العنوان والأسلوب، مما لا يخرج عن منهج تفكيك المجتمعات والهويات والقيم.

(مومس / بغي) هي الكلمة المسخّرة هنا لتوصيف هذه المهنة. ولا يعرّف سبب اقتصارها على الأنثى في الغالب، إزاء وجود طبقة مترفة من نساء القصور، الباحثات عن اللذة السريعة خارج الخمور والقصور.

البغاء، مهنة اقتصادية اجتماعية قائمة على فنِّ دراسة علم نفس المستهلك، ومبدأ إشباع الحاجات العصية على الإشباع بالمفاهيم الشائعة. ويتحفنا التاريخ بأمثلة بارزة وخالدة في هذا المجال. لكن ما يجمع بينها، تلك الاتفاقية غير المكتوبة – على غرار القانون الإنجليزي –، في الفصل الفظيع بين النفس والجسد التي تمارسه البغي خلال العمل. فهي إذ تسلِّم جسدها أو جزء منه أو تسخر بعضه لتلبية حاجة الزبون، تبقى حرّة النفس، أبيّة في الانحطاط أو

التبذل معه. بعبارة أخرى، أن البغي التي تتعرى بالكامل لزبونها، لا تترك له كل جسدها، إلا بتحديدات تقنية وسعرية محددة ومعروفة في السوق. فكل جزء وكل حركة لها أجر.

والأهمّ من ذلك أنها تحتفظ بحق المبادرة والعمل، أما الزبون فعليه التلقي والاستقبال (استهلاك المتعة). وفي كل ذلك، صغر أو كبر، تسلِّم البغي جسدها، ولا تسلِّم نفسها التي تبقى ملك يدها.

•

- ذات بلا عقل

ثمة حالة بغاء قريبة من هذا، ولكنها تنحصر في ذلك الجزء من الجسد المسمى بالعقل. عندما يضع البعض إمكاناته العقلية والفكرية في خدمة جهة أو شخص معين، مقابل مبلغ من مال أو حصة في جاه.

إن المال كغاية مقدّسة هنا، (ضرورة) تبيح المحظورات.

وتسخير الجسد أو الفكر، كلاً أو جزءًا، لقاء المال أو المعيشة، من قبيل الاستهانة بالجزء للفوز بالكلّ، أمر، تشرعنه كثير من الأفكار والعقائد. ولكنه في حقيقة الحال، بغاء، وعهر. وقد تمَّ النهي عن بغاء الجسد في الفكر الاجتماعي والديني، وغض النظر عن الثاني، أو تمَّ التشجيع فيه، طالما، أن المؤسسة الاجتماعية والدينية، بأشدّ حاجة، لمن يدافع عنها ويروّج لأفكارها وممارساتها.

اصطلح "علي الوردي" على أولئك بـــ"الوعَّاظ" وسمَّاهم (وعَّاظ السلاطين)، من حاشية القصر والقائمين على ديوان الأمارة، كناية عن العلاقة الجوهرية بين الدين والسلطة وبالعكس. ووعَّاظ السلاطين في التاريخ العربي أكثر ازدهارًا من أيمَّا تجارة أو صناعة غيرها، فهي تبدأ بشعراء التكسب ولا تنتهي بمنظري الأحزاب والطوائف وسماسرة الفكر، وصولاً إلى مرتزقة الصحافة والرأي

والمهن الدينية المجانية. ولا يمكن التطرق لفترة سياسية أو تاريخية من غير ذكر أبرز مروجيها من الكُتَّاب والصحفيين والمنظِّرين. إنهم لسان الحاكم وفلسفة السلطة، كما الجيش والأمن أذرع الحكم وأطرافه.

وفي الحالين، تزني المومس بجسدها، ويزني المثقف بفكره، أما ذاته وروحه فتبقى نقية نزيهة.

•

- طريق ضيق و جادة واسعة

من الأسئلة الجديرة بكل (ذات)، هو مدى استعدادها للعمل والمثابرة، للخلق والإبداع والاجتهاد، مدى اعتمادها على ذاتها في كل ذلك.

هذا الاستعداد، بمثابة الحصانة الذاتية لتحقيق الفردية المستمرة. كذلك التهاون أو الضعف، بالمقابل، هو تنازل عن (الفردية)، عبر الاعتماد على الآخر والتبعية المتدرجة له.

معنى هذا، أن الأفراد، متفاوتون في انتمائهم إلى (فرديتهم) و(ذاتهم)، ليس في الوعي فحسب، وإنما في استعدادهم لتحقيق (فرديتهم/ذاتهم) والعمل المتواصل والمميز من أجلها. وكلّما كان الفرد أكثر عصامية وجدّية، أمكن له تحقيق ذاته... و العكس بالعكس؛ فالشخصية الإتكالية الفقيرة في قدراتها وسعيها، تستسهل الاعتماد على غيرها لتأمين حاجاتها الخاصة، ولا تتورع أن تضع نفسها في خدمة مصالح الغير لقاء القليل من تأمين حاجاتها وضعفاتها.

والعبودية [slavery] من حيث المنشأ، قامت على أساس وجود أشخاص، يرهنون وجودهم وحياتهم في يد (الآخر) لقاء تأمين المأكل والمبيت والملبس.

لا حكمة من القول بوجود علاقة ارتجاعية بين الفئتين، ولكن نمط الفئة (الإتكالية) إذا توفرت ظروف مشابهة، وضاقت السبل والخيارات، يكون لها

الاستعداد النفسي للتحول إلى نمط العبودية التامة ، أي فقدان استقلالية ذاتها الفردية.

•

- الإتكالية ، السلبية ، الحُمق

الشائع ، نسبة درجة من الذكاء الشعبي ، للشخصية الإتكالية أو الانتهازية (البراغماتية) ، باعتبارها ، تحصل على مبتغاها بأقل الأجور والجهود ، أو بالخديعة ومعسول الكلام. لكن متابعة تفاصيل العلاقة تكشف عن كثير من الاستخذاء والامتهان ، لقاء (الهبات) الباهظة.

يقول المتنبي... (مَنْ يهُنْ يسهُلُ الهوانُ عليهِ !).

إن مجرد قبول (الهوان / المهانة / الامتهان) هو (سقوط) في (فقدان الذات).

وبالتالي ، فما نفع المكاسب – مهما بلغت كميتها ونوعيتها– ، إزاء ذات مفقودة ، أو شخصية فاقدة لنفسها وذاتها. وهي بالتالي مسلوبة الإرادة والمصداقية ، مهما حاولت تفنيد وضعها ومراوغة المقابل.

"ما جدوى أن تربح العالم وتخسر نفسك !".

ولو أنها بذلت نفسها لنفسها ، ما تبذله من جهد (مستخذية) لأجل الغير ، لكان لها سمت الإبداع والعصامية.

إن قيمة الحياة بذاتها ، وقيمة الذات ، بجدارتها بنفسها ، واعتمادها على إمكانياتها وقدراتها ، وترفعها عن مستوى السوقة والغوغاء.

•

- الأنانية والأنا العليا

إذا كان الجسد ممثلاً للكيان الفردي والذات مقترنة بالنفس، فيمكن تمثيلهما بالأنانية، كحاجة ملأزمة لا بدّ منها.

والأنا العليا، رمز للضمير، على اختلاف تعريفاته وتناقضها فيما بينها.

وكما أن الصراع بين الخير والشرّ، الله والشيطان، تمثل بالصراع بين حاجات الجسد الأرضي، ونزوع الروح السماوية، فالصراع بين الأنانية الفردية وتجليات الأنا الأعلى، صورة أخرى لهذا الجدل البيزنطي.

ومن هذا المفترق الفلسفي، اختلفت الأديان في تصور درجة العلاقة وتضادّاتها.

فبينما رحّبت البوذية وحركات الزهد والرهبنة بنبذ الجسدي والتمتع بالروحي والسماوي، تعاملت الأديان عامة بتحفظ كبير مع طرَفي الموضوع.

وفي العموم، كان الفصل بين الأرضي (الجسدي)، والسماوي (الروحي) عبر شاكلة (الموت)، مراوغة ذهنية، نحو يوتوبيا طوباوية، تصوّر مشاهد النشور (الحكم) في عالم ميتافيزيقي [جحيم وفردوس].

وهو أمر خارج خطاب العقل والفكر البشري، وأن لم يبتعد عن تخريجات منطق أرسطوطاليس.

•

- الكوميديا الإلهية

يوقع الفكر الديني نفسه ضحية تخبّطات عرجاء، وهو يزوغ من هنا، ويقارب من هناك، لوضع أطر خلقية محدّدة، للفكر والسلوك، دون الوقوع في الخطيّة.

ففي مرة يتم التحدث عن زنا الفكر أو زنا العين، يتم التحلل وإباحة آثام مادية، بدعوى الضرورة الحياتية أو المشيئة السماوية، والتبرير بالكفارة والغفران أو التوبة.

وفي القصص الديني يتحول خطاة ومجرمون إلى رسل وقديسين وأنبياء، بينما يحكم باللعنة على أبرار مثل أيوب أو بسطاء قطفوا ثمرة من بستان أو تأخروا في الصلاة للملك أو أخطأوا في التسبيح والمديح ، فاتهموا بالتجديف أو المروق.

إن المرء، رهين اثنتين، لا خيار له فيهما... فهو، المخلوق من طين وضعفات أرضية ، عليه التعفف والترفع عن حاجات الجسد والأرض والانطلاق في رؤيته للسماوي والنزيه والنبيل والمقدّس.

البرّ، كمفهوم ديني، هو الإخلاص التام للمشيئة العليا.

والمقدّس من وضع كل كيانه في خدمة الذات المقدّسة، حتى لو انتهى بها الأمر للموت والتضحية بالحياة والجسد.

إن العبودية (المطلقة)، والطاعة، هي رسالة الدين للبشر.

أما مرجعية هذه العبودية، فهي تبدأ من أرباب السماء وتستمر نزولاً لأرباب الأرضين، وآخر عامل في سلك العسس.

وهكذا يتم الفصل بين الإنسان وإنسانيته، وبين خلقه، وامتيازه عن بقية الخلق، والاستهانة بالعالمين، لسوقها قطيعًا من قرابين ذبيحة في مجزرة سماوية.

•

- الإبداع... تجديد وتطوير الحياة

يقول باول أردن: "لقد دفع للمبدعين ليكونوا مبدعين. ولتأكيد استحقاقهم لأجورهم، هم بحاجة لتبيان أفكارهم الذكية.

ثمة كتاب ظهر في الخمسينيات من القرن الماضي، لكنه ما زال حيويًا لليوم. عنوانه (تقنية لإنتاج الأفكار) [Technique for Producing Ideas] لمؤلفه [James Webb- Young]. إنه لا يقدِّم أفكارًا، ولكنه يساعد في توضيح ما

تريد قوله ويساعد في الوصول إلى حل حاسم وعملي."

إن القيمة الاجتماعية للأفكار والعقائد والسياسات، هي في تحفيز مكامن الإبداع وتشجيع مظاهره، خارج الوصايا والتحديدات المخذلة. كما أن إسهام الذات الإنسانية الحقيقي في الحياة والوجود، هو فيما تضفيه وتضيفه، لتحسين حركة الحياة وصورة الوجود، لتكونا أكثر إنسانية وجدارة بالعيش والاستمتاع.

وفي غير هذا القياس، فإن صور الخذلان والهزيمة، هي الشائعة اليوم، والمسؤولة، عن تغذية مظاهر التردي والرداءة العامة في مجالات الحياة المختلفة.

•

To be or not to be -

رواج النزعة الاستهلاكية، مضادّ لديناميكية وتطوير الإنتاجية.

شيوع الإتكالية، مضادّ لمبادئ الاعتماد على الذات والتمتع بأهلية القرار والاستقلالية.

إن النُظم السياسية العامة، وهي تفكّ ارتباط الفرد بالعائلة، عبر آلية الاقتصاد وارتفاع التكاليف، تدفع مجتمعاتها للمزيد من تبعية الاقتصاد الاستهلاكي، وعبودية دولة المؤسسات. ومنذ سني الدراسة التمهيدية، يجد الفرد نفسه، بين مخالب فلسفة سياسية، عبودية اقتصادية، تستمر معه حتى اليفاعة والبلوغ، وتحديد دوره المهني والسياسي ومستواه المعيشي وصولاً إلى حافة الشيخوخة والموت الرحيم.

وهنا، تتخذ الدولة، الدور الذي سبق للدين أن احتله طيلة أزمان طويلة، أي خلافة الخالق في التحكم في تسيير شئون خلقه. (رفعت الأقلام وجفت الصحف).

obeikan.com

obeikan.com

صدر للمؤلف

- **في مجال الشعر :**

١- وطن الحب... وطن الكبرياء / ١٩٨٨م
٢- ما قالته النخلة للعشاق / ١٩٩١م
٣- تأملات قبل السفر / ١٩٩١م
٤- سلطان الكلام / ١٩٩٩م
٥- أغنية الغبار / ٢٠٠٠م
٦- منفيون من جنة الشطان / ٢٠٠٣م
٧- دخول في خبر كان / ٢٠٠٤م
٨- صدفة نجوت / ٢٠٠٦م
٩- صعود اليشا / ٢٠١٠م
١٠- أزهار حكمة البستاني / ٢٠١٣م

- **في مجال السرد :**

- كركجورد العراقي- رواية- ٢٠٠٩م
- سنكسارا- رواية / ٢٠١٦م

- **في مجال النقد الأدبي والانطولوجيا :**

١- يوسف عزالدين... شعره وتجديده / ١٩٩٣م
٢- جنى الاوراق من أدب عبد الرزاق / ١٩٩٩م
٣- أحفاد جلجامش (انطولوجيا الشعر العراقي ١٩٨٠- ٢٠٠٠م) / ٢٠٠٣م
٤- سعدي يوسف... صورة في الثمانين / ٢٠١٤م

obeikan.com

▪ **في مجال الفكر والفلسفة :**

- في علم اجتماع الفرد... خمسون حديثا عن اللغة واللامعقول والواقع / ٢٠١٧م

▪ **في اللغات غير العربية :**

١- الاثار الإنسانية للحصار الاقتصادي الدولي على العراق (معهد العلوم السياسية في جامعة سالزبورغ / النمسا) / ١٩٩٩م

٢- أغنية الغبار (مجموعة شعرية باللغة الإنجليزية)- ت : جواد وادي / ٢٠٠٤م

٣- صدفة نجوت / مجموعة شعرية باللغتين الألمانية والعربية / ٢٠٠٦م

▪ **في الإعلام والصحافة :**

١- برنامج اذاعي أسبوعي باللغة العربية في مدينة لنز / النمسا العليا / ١٩٩٨م

٢- مجلة الساري... فصلية ثقافية بالعربية والألمانية / ١٩٩٨- ١٩٩٩م

٣- مجلة ضفاف... فصلية ثقافية باللغتين العربية والألمانية / ١٩٩٩- ٢٠٠٥م

٤- مساهمات متنوعة في الدوريات والانطلوجيات باللغات العربية والألمانية والإنجليزية.

٥- له صفحات خاصة (website) في عدة مواقع إلكترونية منها : موقع الحوار المتمدن ، الشبكة العربية الدولية ، موقع ديوان العرب ، جماليا للثقافة والفنون ، موقع الشعر للشاعر قاسم حداد ، موقع واتا للترجمة والإبداع العربي ، موقع الكتاب العربي ، موقع القصة السورية ، صفحة الاتحاد العام لأدباء العراق ، معارج الفكر ، صوت العروبة ، جذور ، دروب ، مجلة المهجر ، وغيرها.

▪ **البريد الإلكتروني : wdobd14@gmail.com**